الجزء الخامس

آفـــاق

الرسالة الرابعة والعشرون

سَلِم بيتك من الجُدَرِيّ!

عزيزتي السّيدة ماري،

اعتدت أن ألعب لعبة مع نفسي وأنا واقفة في قطار طويل في مكتب البريد، أو في رحلات كثيرة بالسيّارة، أو أثناء انتظاري رِحْلات الطيران المتأخّرة في المطارات، وأحيانًا قُبيل نومي؛ أحبّ أن أفكّر في نِعم الله كلّها التي حباني بها، وفي الأشياء الثمينة الرائعة كلّها في حياتي، وأضع قوائم بما أقدّره كلّه في مختلف جوانب حياتي، كأشخاص أحبّهم، والحيوانات، والطبيعة، وهواية نفخ الزجاج، وعملي، ووطني، أمّا فيما يخصّ وطني، فأحبّ أن أضع قوائم تضمّ الأشياء كلّها الغريبة، الساحرة، العجيبة، حتى السخيفة التي قدّمتها بلادي للعالم، مثل: المغنّي بوب ديلان، وموسيقى الجاز، والطبّ الحديث، والديمقراطيّة، والحرّيّة الدينيّة، والمؤلّف ويليام فوكنر، ألعب هذه اللعبة أيضًا مع فرنسا وتركيا.

ربّما لم تقدّم تركيا للعالم الإصلاح، أو التنوير، أو الثورة الصناعيّة، لكنّها كانت على مرّ التاريخ مشاركًا مهمًّا على الساحة العالميّة بدرجات متفاوتة؛ فعلى الصعيد الشخصيّ منحتني تركيا كثيرًا، وأتمنّى توضيح

ذلك في رسائلي هذه لك -يا سيّدة ماري-؛ لا تقتصر تلك العطايا على تقديري للفنّ، والعمارة، والأحجار المتحدّثة، والتفاعل مع ثقافة أخرى، وفرصة عبوري جسورًا حسيّة ومعنويّة، بل تضمّ أيضًا دفء العلاقات، والثقة في الإنسانيّة، وتعلّم درس الإصرار، والإيمان بصالح إخوتي في الإنسانيّة وبالإنسانيّة كلّها.

تتأثّر الثقافات القويّة كلّها بعضها ببعض؛ فمنحت تركيا باقي الدول عالمًا من الراحة والرفاهيّة، من خلال الأثاث، مثل: الأرائك بأنواعها، ومن خلال مفهوم النظافة المشاهد في المناشف التركيّة الثخينة وحمّام البخار وفنّ التدليك، ومن خلال نمط الدُّرَّاعة والعِمامة والنسيج المطرّز والقطيفة والعباءات، ومن خلال السمة الشرقيّة، ومفهوم الصدقة الجارية، وشاركت تركيا العالم ملذّات مطبخها؛ فلا يمكننا تصوّر الحياة الآن من دون القهوة أو اللبن الخثير أو البسطرمة أو الحلوى الطحينيّة أو الكباب أو الملبن أو الكافيار؛ فهل يفكّر الفرنسيّون صباحًا عندما يرشفون القهوة بالحليب مع مخبوزات الكرواسون أنّ إفطارهم من ابتكار الأتراك؟ بل إنّ مفردات لغتنا قد زادت ثراءً بفضل بعض المصطلحات الإداريّة، مثل: الباشا، والتابع، والسنجق وغيرها؛ وجلبت القوافل التركيّة كنوز الشرق الأقصى إلى مجالس البيوت الأوربّيّة الراقية، ومنحت الثقافةُ التركيّة قاعدةَ الأدب العالميّ أشعارًا شجيّة بالغة التأثير للروميّ ويونس إمره، وقدّمت للعالم الدروس المستقاة من مبدعيها الأقوياء، مثل: سِنان وأتاتورك، وقدّمت لنا تركيا لعبة البريدج "السد"، والسجّادة التركيّة، والتوليب أروع الزهور!

ربّما كان أهمّ إرث منحته تركيا للعالم هو ما ساعدتِ في تحقيقه -يا سيّدة ماري-؛ فبفضلك استطاع العثمانيّون أن يتركوا أثرًا خالدًا

في العالم، وممّا يدعو للدهشة أنّ ذلك الأثر يتمثّل في انعدام الأثر؛ منحت تركيا للعالم وجنات أطفال ناعمة ليقبّلوها؛ لا بدّ أنّك تعرفين ما أتحدّث عنه؛ حينما كنتِ في السادسة والعشرين من عمرك، تفتنين مجالس لندن ومحافلها بجمالك وذكائك، تلقّيت ضربة مدمّرة قادرة على تدمير أيّة امرأة أخرى ممّن حولك، لكن ليس أنت -يا سيّدة ماري-؛ فقُبيل الاحتفالات بعيد الميلاد عام ١٧١٥م أصابك مرض الجُدَرِيّ؛ دام المرض قُرابة عشرين يومًا فقط، لكنّ ندوبه وآثار بثوره المروّعة صاحبتك طيلة حياتك؛ صارت بَشَرتك مليئة بندوب عميقة، وفقدتِ حاجبيك وأهدابك؛ لم تذكري ذلك في أيّ من رسائلك، لكنّني أتصوّر أثر ذلك بلا شكّ على رؤيتك لذاتك، وما أضافه على علاقتك بزوجك من توتّر، بل وكيف جعلك دون شكّ محلًّا لشفقة الأوساط الاجتماعيّة في لندن؛ كنت قد رأيت أخاك يموت بأثر إصابته بهذا المرض، ورغم محاولتك إخفاء وجهك بمساحيق خاصّة، فلا شكّ أنّك تحلّيت بقدر هائل من الشجاعة لتواجهي حياتك، كما لو كان جمالك الشهير -الغابر- لا علاقة له بما صرت إليه، وبما كان الناس يرونه فيك، وبعد أربعة أشهر تلقّى زوجك أنباء تعيينه سفيرًا لدى البلاط العثمانيّ، وبحلول شهر يوليو/تموز، بعد مرور سبعة أشهر فقط على ذلك الحدث المصيريّ، كنت في طريقك إلى تركيا.

كانت رسائلك المبهجة الواصفة جمال النساء التركيّات الساحر تخلو تمامًا من أيّ شعور بالرثاء للذات أو بالغيرة من الأخريات، لكنّني أشعر أنّك كنت حسّاسة تُجاه الموضوع؛ لأنّك فقدت جمالك، ولأنّ هؤلاء النساء يبدون فاتنات موازنة بما أصابك من تشوّه؛ فأيّة شجاعة تحلّيت بها كي تدخلي ذلك الحمّام التركيّ على مرأى من مئتي امرأة، وتظهري ندوبك أمام هؤلاء الجميلات كلّهنّ ذوات البَشَرة ناصعة البياض؟ وأيّ ثبات تمتّعت به كي تسيري أمام سيّدات من عِلِّيَّة القوم ومن بلاط

السلطان، وأنت تشعرين أنهنّ جميعًا يتهامسن خلف ظهرك، مشفقات على هذه السيّدة الإنجليزيّة المسكينة ذات البشرة البشعة؟ لا عجب أنّك كثيرًا ما أشرت في رسائلك إلى البشرة ناصعة البياض للنساء التركيّات؛ كانت بشرتك الإنجليزيّة الورديّة ذات يوم في بياض بشرتهنّ، لكنّ ضررًا رهيبًا خلّفه الجُدَريّ نزع الخيلاء من داخلك!

أعرف أنك من ضحايا الجدريّ، وفي بداية إقامتك بتركيا، كنت في أدرنة، فتعرّضت لموقف أدهشك؛ كان ذلك في عصر قلّ فيه التفاهم بين أوروبا والشرق، واتّسمت أنت بموضوعيتك في تشجيع ثقافة جديدة بدت وقتئذٍ أنّها عادة غريبة؛ كتبتِ في رسالة طويلة إلى صديقتك سارة تشيويل في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م تقولين:

> ”على ذكر مرض الدَّرَن، سأخبرك شيئًا أثق أنّه سيجعلك تتمنّين لو كنت هنا؛ تعرفين مرض الجُدَريّ الفتّاك المنتشر بيننا، لا ضرر منه مطلقًا هنا بفضل اختراع يطلقون عليه: (التطعيم)؛ تأخذ مجموعة من النسوة العجائز هذه المهمّة على عاتقهن؛ ففي كلّ خريف في شهر سبتمبر/أيلول، حينما تقلّ ذروة المرض، تتراسل العوائل فيما بينها لمعرفة الراغب في التطعيم، وتُشكّل مجموعات لهذا الغرض، وحينما تلتقي المجموعة -عادة ما تضمّ خمسة عشر شخصًا أو ستّة عشر-، تأتي العجوز حاملة صدفة جوز مليئة بأفضل أنواع الجُدريّ الميّت، وتسأل عن الوريد المُراد حقنه، وتثقب فورًا الأوردة المختارة بإبرة كبيرة -لا يسبّب ذلك إلّا ألمًا خفيفًا، كألم الخدش العاديّ-، ثمّ تحقن الوريد بالسمّ بقدر ما يحمل سنّ الإبرة، ثمّ تربط الجُرح الصغير بجزء مجوّف من الصدفة، وبالطريقة نفسها تثقب أربعة أوردة أو خمسة، ويقضي الأطفال أو المرضى الصغار بقيّة اليوم في اللعب معًا، ويظلّون في أتمّ صحة حتى اليوم الثامن من الإصابة، ثمّ تصيبهم حمّى تُلزمهم الفراش يومين، وفي أحوال نادرة جدًّا ثلاثة أيّام، ونادرًا

ما تزيد البثور في وجوههم عن عشرين بثرة أو ثلاثين لا تُخلّف أيّ أثر، وفي غضون ثمانية أيّام يستعيدون كامل عافيتهم".

ما شاهدت لم تكن سوى التلقيح ضدّ الجدريّ بحقن جرثومة ميّتة للمرض، كانت رؤية هذا الحدث في الأهميّة نفسها لإصابتك بالمرض، وقد منحتك فرصة للتعبير عن صبرك على الحقيقة؛ فبدلًا من نبذ هذا الإجراء الذي قد يبدو همجيًّا، دفعك فضولك الفطريّ لتجربته، وقرّرت تلقيح ابنك في تركيا:

"كلّ عامٍ يخضع الآلاف لهذه العمليّة، يقول السفير الفرنسيّ ضاحكًا: (إنّهم يتلقّون تطعيم الجدريّ هنا، مثلما يحصل الأشخاص على الماء في بلدان أخرى)، لم يحدث قطّ أن مات شخص جرّاء هذا الإجراء، ويمكن أن تتأكّد لديكِ ثقتي كلّ الثقة من سلامة هذه العمليّة، لأنّني قرّرت إخضاع ولدي العزيز لها".

شجّعك طبيب في السِّفارة البريطانيّة على إخضاع طفلك البالغ خمس سنوات لهذه العمليّة، وقد ذكرت في رسالة إلى زوجك في مارس/آذار ١٧١٨م: "طُعّم الطفل يوم الثلاثاء الماضي، وهو الآن يغنّي، ويلعب، ولا يطيق صبرًا على تناول عشائه؛ أدعو الله أن تحوي رسالتي القادمة أخبارًا سارّة عنه".

نسينا اليوم رعبًا أشاعه هذا المرض في العالم قديمًا؛ فخلال القرن الثامن عشر وحده حصد المرض أرواح ما يزيد عن ستّين مليون شخص، ولقيت الملكة ماري الثانية -التي وُلدتِ في عهدها- حتفها بهذا المرض المتسبّب في مقتل خمسة ملوك أوربّيين آخرين خلال ذلك القرن، وقضى الجُدَريّ على إمبراطوريّة الإنكا في بيرو وشعب الأزتك في المكسيك خلال القرن السادس عشر، وحصد أرواح ٩٠٪ من الهنود الحمر في القرن الثامن عشر، وكانت أفدح الخسائر في الأرواح من نصيب الأطفال دون الخامسة؛ إذ كان ثمانية من كلّ عشرة أطفال يموتون نتيجة

الإصابة به، وكان ثُلث الناجين من الموت يفقدون أبصارهم، وقد ترك المرض ندوبه على أوجه ستالين، وهنري الثامن، والملكة إليزابيث الأولى، وإبراهام لينكولن، وفي القرن العشرين لقي ما يزيد عن ثلاث مئة مليون شخص حتفَهم نتيجة إصابتهم بالجُدَريّ، ولا تزال هناك مخازن لجراثيم الجدريّ في معامل سريّة في روسيا، وإنجلترا، والولايات المتّحدة جاهزة للاستخدام في أيّ حرب عضويّة سلاحًا أشدّ فتكًا من أيّة قنبلة نوويّة أو صاروخ.

رغم الاجتياح الهائل لهذا المرض، كان له علاج وقائيّ معروف منذ قرون، يُعرف باسم التلقيح، ويعتقد بعض الناس أنّه مُورس في الهند منذ عام ١٠٠٠ق.م، ثمّ استخدمه الصينيّون، وكان الهنود يمسحون الجروح بصديد الجدريّ، وكان الصينيّون يجعلون المريض يستنشق مسحوق القشور لبثور الجدريّ، وفي الحالتين كان المريض يصاب بطور ضعيف من أطوار المرض ثمّ يُشفى شفاء تامًّا، يُعتقد أيضًا أنّ الأطباء العرب عرفوا التلقيح في القرن السادس، وانتشرت هذه الأنواع من الطُّعوم حتى وصلت إلى تركيا العثمانيّة حيث شاع استخدامها، وكان هذا ما شاهدتِه في أدرنة، استخدم الأتراك الجوز لتهيئة مزرعة الجراثيم، من خلال حقن صديد الجدريّ في لبّ الجوز وتركه ليتخمّر، وينمو في البيئة الدافئة لقشرة الجوز؛ وقد ختمت رسالتك إلى سارة تشيويل قائلة:

> ”تدفعني وطنيّتي أن أحاول نشر هذا الاكتشاف المفيد في إنجلترا، ولا بدّ ألّا أتردّد في الكتابة لبعض أطبائنا عن هذا الأمر تحديدًا، إذا شعرت أنّ أيًّا منهم يتمتّع بالفضيلة والتضحية من أجل صالح البشريّة، لكنّ هذا الوباء يعود بنفع هائل على الأطباء؛ فلن يتمكّن جَسور يبحث عن القضاء على هذا المرض من مواجهة سخطهم؛ إذا بقيتُ حيّة حتى أعود، ربّما سأتحلّى بالشجاعة كي أحاربهم بالرغم من ذلك كلّه“.

قد حاربتِهم بالفعل؛ فبعد عودتك من تركيا إلى إنجلترا أطلقتِ حملة نشيطة لتشجيع هذه الممارسة، وتبيّن أنّ الطريق كان وعرًا جدًّا، ربّما لستِ أوّل ناقل معلومات إلى إنجلترا عن التطعيم، فأحد الأطباء الإيطاليّين في القسطنطينيّة أعطى تقريرًا عن ذلك قبل عودتك بأربع سنوات، لكنّ كلامك هو اللافت الانتباه؛ فقد طعّمت ابنتك علنًا على يد طبيب السفارة نفسه الذي طعّم ابنك في القسطنطينيّة، ويُعتقد أنّ ابنتك ماري هي أوّل من طُعّم في إنجلترا؛ فأثرتِ الاهتمام بهذه العمليّة في كلية طبّ لندن، فتحلّى بعض الجرّاحين بالشجاعة الكافية لإجراء تجارب ناجحة، ودخولك هذه التجربة، وتشجيعك الآخرين على خوضها دفع العائلة المالكة، والمترفين، والساسة المرموقين إلى تطعيم أطفالهم، الأمر الذي أذِن بانتشار هذه الممارسة بين الطبقات الراقية في إنجلترا، غير أنّ ذلك الحماس لم يدم طويلًا للأسف! فرغم النجاح المبدئيّ المتحقّق من عام ١٧٢١م إلى عام ١٧٢٣م، سرعان ما زادت حدّة المعارضة الدينيّة للتطعيم؛ إذ كان الجدل الدائر حول هذه المسألة عنيفًا ومتطرّفًا؛ فقد اعتقد بعض الموصوفين بأنّهم "رجال الدين" أنّ هذه العمليّة ضدّ إرادة الربّ، لأنّه يرسل الجدريّ للبشر عقابًا على عمل شيطانيّ وللسيطرة على تزايد عدد الفقراء بوسيلة طبيعيّة!

طالت هذه الحماقة الأطبّاء أيضًا؛ إذ غضبوا، لأنّ هذه العمليّة الناجحة لم يكتشفها أطبّاء مثلهم، بل اكتشفها "الشامانيّون" (الأتراك قبل الإسلام) في بلاد غير غربيّة، وفوق هذا كلّه؛ لأنّ من يروّج لهذه العمليّة امرأة؛ كانت تلك المرأة أنت -يا سيّدة ماري-؛ فقام الأطباء بتزوير نتائج الحالات الخاضعة للتجربة، ونشروا الأبحاث المنذّدة بهذه العمليّة، وسعوا لإثبات أنّها تسفر عن متوسط وفاة أعلى ممّا كان يُعتقد من قبل، وأنّها تُسبّب انتشار أمراض أخرى، مثل: الزهريّ؛ فتمّ وأد عمليّة التطعيم في مهدها، وبدأتِ تندمين على نشر هذه الممارسة التركيّة

في بلادك؛ لأنّها جلبت عليكِ وعلى عائلتك كثيرًا من الخزي والاضطهاد، لكنكِ ثابرت، ولم تستسلمي لهذا الجدل الدائر، ونشرت دون إمضاء كتيّبًا لاذعًا تستنكرين فيه احتيال الأطباء وجهلهم، وتُلقين باللوم عليهم، لا على الجرثومة المضادّة، ولو أنّهم استمعوا إليك، لمنعوا عنكِ كثيرًا من الأسى؛ فقد تجاهلت أختك السيّدة جاور عرضك تطعيم ابنها مع ابنتك ماري؛ فمات بعد عامين إثر إصابته بالجدريّ، ووقعت أكثر المآسي إثارة للسخرية، حينما توفّيت صديقتك سارة تشيويل -التي كتبتِ إليها تلك الرسالة الحماسيّة القويّة تصفين فيها عمليّة التطعيم في أدرنة- متأثرة بهذا المرض عام ١٧٢٦م.

عقب خمود عاصفة حقد وجدل أثرتِها في إنجلترا، دار الفصل الثاني من قصّتك في بلادي؛ فقد نجحت جهودك في "نيو إنجلاند" (انجلترا الجديدة) عندما أعلن مجموعة من الأطبّاء المرموقين دعمهم للحركة، على الرغم من عاصفة الجدل المثارة هناك أيضًا، وفي عام ١٧٢١م وصل بوسطن عَبْدٌ من باربادوس، وأوضح كيف تلقّى التطعيم في وطنه الأمّ السودان بأسلوب الخدش نفسه المستخدم في أدرنة؛ فأكّدَ النتائج النهائيّة المبدوءة بجهودك في إنجلترا، وشرع الأطبّاء الأمريكيّون يستخدمون هذا الأسلوب؛ فلاقت عمليّة التطعيم قبولًا واسعًا بعد ما حقّقت نتائج ناجحة، عندما اجتاح الوباء بوسطن عام ١٧٢٢م؛ إذ نجا كلّ من خضع للتطعيم، ولم يصب بأيّ أذًى، وأمر جورج واشنطن بتطعيم جنود الحرب الثوريّة كلّهم ممّن لم تسبق إصابتهم بالمرض، وهكذا شاركت جهودك مشاركة غير مباشرة في الانتصار في حربنا لنيل الاستقلال من حكم ملكك جورج الثالث.

انتقلت أحداث قصّتك إلى إنجلترا مجدّدًا عبر المحيط الأطلسيّ؛ فقد بدأ شابّ ذكيّ يدعى إدوارد جينر في جمع الخيوط كلّها معًا؛ لاحظ جينر حينما كان صبيًّا أنّ العاملين في صناعة الحليب المحتكّين

بجـدريّ المواشـي، أي: جدريّ الأبقـار، لا يصابون بالمـرض ألبتّة، وبعد أن صـار طبيبًـا، لم تغب هـذه الملاحظة عن باله، وبعد الاسـتقصاء أعطى ملاحظاتـه في بحث للجمعيّـة الطبّيّة في وطنه؛ انتشـرت نظريّته في العالم الغربيّ بحلول عام ١٨٠٠م، وكان من الشجاعة بحيث طعّم ابنه، كما فعلتِ يا سيّدة ماري، لكنّه لم يطعّمه بجرثومة الجدريّ، بل بجرثومة جدريّ الأبقار؛ إذ تمخّضت تجاربه وأبحاثه عن استخدام لقاح لجدريّ الأبقار يحصّن البشر ضـدّه؛ وهكذا اُكتشـف لقاح الجـدريّ؛ لم يطل عمرك لتـري هذا النجاح، لكنّ شجاعتك على نشر هذه الممارسة، ومثابرتك، واستمرارك كنّ السبب في إنقاذ حياة الملايين منذ ذلك الحين في أنحاء العالم جميعًا!

هل كان جينر سـيتمكّن من إنجاز ما أنجزه بعد مرور تسـعة وسـبعين عامًا لو لم تمهدي له الطريق؟ لو لم تكن لديك شجاعة -ازدادت قوّةً نتيجةَ خوفـك الشـخصيّ من هذا المـرض- لمواجهة المعارضيـن كلّهم ولريادة الطريـق، أنـا واثقة أنّ جينر وغيره من العلمـاء الحقيقيّين لم يكونوا ليعثروا على الطريق، ويكتشـفوا وسـيلة للقضاء نهائيًّا على المرض؛ إذ كان دورك مهمًّا كدور أيّ عالم، وقويًّا كقوّة أيّ لقاح؛ لأنّك تحلّيت بالشجاعة المستنيرة لتحدّي الوسط الطبيّ والرأي العامّ القاسيين قسوة الجدريّ غريمك.

بعـد حمـلات تلقيـح ناجحة اسـتمرّت طوال القرنين التاسـع عشـر والعشـرين، أعلنـت منظّمـة الصحّـة العالميّة رسـميًّا القضـاء على مرض الجـدريّ عـام ١٩٧٧م، وإلـى يومنـا هـذا لا يـزال الجدريّ هـو المرض البشـريّ المعـدي الوحيد المقضيّ عليـه نهائيًّا من العالـم؛ هذا هو إرثك للعالـم -يا سـيّدة ماري-، ناتـج كلّه عن ملاحظة دقيقة لممارسـة تجري في غرفة صغيرة في مدينة أدرنة العثمانيّة، وعن اقتناعك بفائدتها، وجرأتك على عبور الجسـر بها ومنحك إيّاها بلادك؛ لن تُسـمـع أبدًا كلمات اللعنة الشـهيرة: ”عسـى أن يدهم الجدري بيتك!“ إلّا في مسـرحيّات شكسبير، ولـن تُضطـرّ الأمّهات ثانيـة إلى مشـاهدة أطفالهنّ يقعون فريسـة للموت

أو للتشويه بسبب هذا الوباء؛ من الآن فصاعدًا ستنعم أمّهات العالم بمتعة تقبيلهـنّ وجنـات أطفالهنّ الورديّـة الناعمة الخالية من النـدوب، هذا كلّه بفضل هديّة من بلد مميّز، جلبتها أنت؛ فأنت أكثر النساء شجاعة وتميّزًا!

وتفضلي بقبول عظيم احترامي
كاثرين براننج

على أريكتها استلقت فلافيا البائسة،
وزفرت العذاب من عقلها الجريح،
وأمام مرآة على يمينها تبرمت؛
لأنها تشيح الآن عن الوجه المنشود؛
كيف تغيرتُ! واحسرتاه! إلامَ صرت!
هذا مشهد مروّع لصورتي لا أعرفه!
أين بشرتي؟ أين نضارتي المتألقة
التي بشرتني بالسعادة لسنوات قادمة؟
كيف لي أن أنعم بالسعادة بهذا الوجه!
ومن يسعى للفائي بعد أن يطالعه!
كم أتمنّى أن تشرق طلعتي بتورّد زاهٍ!
وتنألّق عيناي برحيق حياة جديدة!
أيّتها المرآة الغادرة، ردّي عليّ نضارتي المعهودة،
للأسف! أنا أهذي، فلم يعد لذلك النضارة وجود!

السّيدة مونناجيو "فلافيا"

نصب الشمس التذكاريّ، أقامه ويليام وينتوورث عام ١٧٤٧م تخليدًا لذكرى السيّدة ماري على أراضي قلعة وينتوورث (يوركشاير في إنجلترا):
"إحياء لذكرى السيّدة المحترمة ماري وورتلي مونتاجيو التى أَحضرت عام ١٧٢٠م لقاح الجُدريّ من تركيا إلى إنجلترا"

الرسالة الخامسة والعشرون

اقتحام الماضي

إلى محسن إلياس صوباشي

عزيزتي السّيدة ماري،

أستمتع -مثلك- بزيارة المواقع واكتشاف الثروات الثقافيّة التركيّة؛ إذ خرجتُ في كثير من النُّزَه التي خرجتِ فيها؛ لقد تجولتِ البوسفور في قارب طويل، وشاهدتِ على ضفافه المنازل الخشبيّة والحدائق والغابات والمساجد المرصوصة، مثل: ''خزانة عرض للتحف زخرفتها أمهر الأيدي''، وزرتِ جامع السليميّة في أدرنة، واستكشفتِ شوارع بيرا مرتديةً لباسا مدنيّا متواضعًا، وساومتِ تجار السوق الكبيرة ''جراند بازار'' بلغتك التركيّة المهذّبة؛ فكان وصفك لتلك المزارات البوسفوريّة، وقصر طوب قابي، وكنيسة آيا صوفيا، وجامع السليمانيّة، والهيبودروم -ساحة الألعاب البيزنطيّة-، والمسجد الأزرق بناه السلطان أحمد، وصفًا دقيقًا، كوصف أيّ مرشد سياحيّ معاصر حتى إنّك زرت تكيّة الدراويش، وشرحت طقوسهم.

أثارت رسالتك من أدرنة في بداية إقامتك بتركيا اهتمامي؛ إذ تحدّثتِ عن زيارتك لخان عثمانيّ -مخزن تجاريّ-، ووصفت دهشتك لرؤية الجمل هناك، هذا "الحيوان من فصيلة الأيائل، وهو أطول بكثير من الحصان، وسريع جدًّا؛ إذ يستطيع أن يسبق أكثر الجياد سرعة، وهو مخلوق قبيح، يفتقر إلى رشاقة الثور"، وأعطيتِ وصفًا مفصّلًا للمبنى: "أرى أنّ إنشاء هذه المؤسّسات لفتة خيريّة أكثر منطقيّة من إنشاء أديرة الرهبان"؛ الآن تجذب هذه الأَخْوان[1] -لا الجِمال- اهتمامي أنا أيضًا حتى إنّها أصبحت جزءًا مهمًّا من حياتي طوال الثلاثين عامًا الماضية؛ فمنذ أن وقعت عيناي على مدرسة جوق في سيواس خلال زيارتي الأولى إلى تركيا، استحوذ عليّ ولع البحث عن الذهب، وكنت أسافر سنويًّا للبحث عنه، وبذلت كثيرًا من الوقت، والجهد، والنقود، والطاقة في سبيل ذلك، وارتديت أنا أيضًا في رِحلاتي لباسا نسائيًّا متواضعا مثلكِ، لكي يميّزني عن السائحين المعتادين، ربّما لم يكن فخمًا كالذي ارتديته، لكنّه كان متناسقًا على أيّة حال؛ فهو لباس عمليّ أكثر منه أنيقًا، مع حذاء متين، ونُقْبة تصل إلى الكاحلين، وقميص بكمّين طويلين، ونظّارة شمسيّة، وغطاء رأس يقي من أشعة الشمس ومن النظرات المستهجنة، اكتمل اللباس بزينة، مثل: حقيبة نسائيّة متينة، معلّقة على الكتف، مليئة بأدوات الاستكشاف الضروريّة: كشّاف، شريطة قياس، دفتر ملاحظات، أقلام حبر، أقلام رصاص، بطّاريّات وعدسات للمصوّرة، زجاجة ماء تلازمني، كتيّبات إرشاديّة، أوراق، قليل من بسكويت «أولكر»، دفاتر رسم، صور قديمة مقصوصة من كتب مصفرَّة... إلخ، كما ترين -يا سيّدة ماري-؛ فعمليّة البحث عن أحجار ذهبيّة أكثر تعقيدًا من نزهة لطيفة بقارب طويل عبر البوسفور؛ لأنّها تتطلّب التحمّل لقيظ سهول الأناضول، وغبارها، وطرقها الخطرة، وفنادقها، وأحوالها الصعبة، غير أنّ نداء تلك الأحجار كان دائمًا أقوى من أيّ عناء تحملّته، وتألّقها

(١) جمع خان، وتُجمَع على خانات أيضًا.

أضاء حياتي بوسائل عجيبة، لكنّني لم أبحث عن أيّة أحجار ذهبيّة، بل عن تلك المستُخدمة في بناء الآثار الباقية من عهد الإمبراطوريّة السلجوقيّة، ولم أبحث عن أيّة آثار، بل عن أسلاف صرح شاهدته في أدرنة؛ هي نُزُل للمسافرين في سهول الأناضول الشاسعة المشيّدة على الطرق المتشعّبة من العاصمة السلجوقيّة قونيا.

تحدّثت إليكِ في السابق عن السؤال المتكرّر: «لماذا تركيا؟ ولماذا العودة إلى تركيا كلّ عام طوال الثلاثين عامًا الماضية؟»؛ أخبرتك في تلك الرسالة أنّني ذهبت إلى هناك في بادئ الأمر لأشبع رغبتي في رؤية مبنى استحوذ على تفكيري منذ أن وقعت عيناي أوّل مرّة على صورة له أثناء محاضرة دراسيّة، حاولت أيضًا أن أشرح لك في رسائل كثيرة أخرى أسباب عودتي إلى تركيا كلّ عام؛ إنّه الكرم التركيّ، وتلك البصمة التركيّة، وثمار الخوخ، وأوجه الشبه بين الأتراك والأشخاص الذين نشأت بينهم، لكن إذا أردت معرفة الحقيقة، فإنّ ولعي بهذا المبنى في سيواس وأمثاله من المباني التركيّة كان القوّة الدافعة لأن أعود عامًا بعد عام؛ فقد تكون تركيا عامرة بأشخاص وُدّ وبطبيعة جميلة، لكنّ سحر تلك الأحجار هو المغناطيس الذي يجذبني للعودة كلّ عام.

يتعذّر عليّ تفسير هذه القوّة المغناطيسية الجاذبة، وأحيانًا أكتفي بهزّ كتفيّ قائلة للآخرين -كما أقول لنفسي-: لا تفسير للأمر؛ إذ ثمّة ثوابت في حياة المرء لا يحاول تفسيرها، مثل: طريقة تناوله القهوة، أو خفقان قلبه كلّما اقترب من مدخل منزله، أو نظرة مميزة منها يعرف أنّه وجد حبّ حياته؛ فهذه الأمور لا يمكن تفسيرها من الناحية العلميّة؛ فهي تحدث فقط، والحال نفسها لإعجابي الشديد بالعهد السلجوقيّ من جانبين: جانب المجتمع والثقافة في هذا العهد، وجانب فنّ أنتجه.

مـن هم السـلاجقة؟ ومـا إمبراطوريّتهـم؟ قد تبدو حضارة السـلاجقة -كحال الإتروسـكان أو السـلتيين- بعيـدة، منعزلة، غير مهمّة في مسـيرة التاريخ المديدة، لكنّها تمثّل لي لحظة مجيدة في تاريخ الحضارة؛ انطلق السـلاطين السـلاجقة من عاصمتهم المتألّقـة قونيا؛ فكان عهدًا اسـتثنائيًّا مـن النواحي السياسـيّة، والتجاريّة والفنيّة؛ دام عهدهـم فترة قصيرة جدًّا، لكنّـه كان عهـدًا ذهبيًّا؛ ازدهر حكمهم من القرن الحادي عشـر إلى القرن الثالث عشـر، ووقـع بين حدثين مصيريّين غيّرا وجه العالم: هما الحروب الصليبيّـة، والغزو المغوليّ، لكن فـي غضون مئتي عام فقط، عام ١٠٧٧م - ١٣٠٧م، تمكّـن السـلاجقة مـن تـرك بصمـة اقتصاديّـة وثقافيّـة قويّـة، والأهم من ذلك أنّ العهد السـلجوقيّ أنتج بعض أعظم الفنون المعماريّة والزخرفيّة وأجملها.

هـؤلاء السـلاجقة هـم مؤسّسـو تركيـا المعروفـة اليـوم، وهـم آخر القبائـل التركمانيّـة النازحـة ببـطء تجاه الغرب منـذ القرن التاسـع تقريبًا مـن المنطقـة المحيطة ببحيرة بايكال في سـيبيريا، بحثًا عن مراعٍ خضراء، ومواطـن جديـدة، وفـرص واعدة، وهـم مجموعة من الأتراك السـلاجقة المستقرّين بالفعل في إيران اتّجهت غربًا، وعُرفَت باسم: السلاجقة العظام أو الشـرقيين؛ ترك هذا الفرع من السـلاجقة الشـرقيّين بلاد ما وراء النهر -المنطقة الواقعة بين بحر آرال وبحر قزوين- وخراسان -المنطقة الواقعة في شـمال غرب إيران- حتى وصل الأناضول مـع بدايات القرن الحادي عشـر، كان السـلاجقة في الأصل شـامانيّين، ثمّ بدؤوا يعتنقون الإسـلام خلال مسيرتهم نحو الغرب، ورغم أنّهم احتفظوا بعناصر معيّنة من ثقافتهم الأصليّـة، فقـد اعتنقوا الإسـلام عـن يقين، وصـاروا مدافعيـن مخلصين عن العقيدة، وسرعان ما سيطروا تدريجيًّا على أغلب مدن شرق الأناضول ووسـطه، وحينما انتصروا على البيزنطيّين فـي معركة «ملاذكرد» الفاصلة في شرق تركيا عام ١٧٠١م، انفتحت لهم أبواب الأناضول.

كان هـؤلاء السـلاجقة بُنـاة، سـواءٌ للمبانـي أو الحضارات؛ وأشـعر بشـيء مـن الألفـة مـع تلـك المسـاعي النشـيطة لهـؤلاء السـلاجقة؛ لأنّ بـلادي -الولايـات المتّحـدة- حقّقـت كثيـرًا خـلال مئتـي عـام، كان السـلاجقة محاربين أشدّاء؛ حاربوا البيزنطيّين ليشيّدوا إمبراطوريّتهم، واضطـرّوا لصـدّ الهجمـات الصليبيّـة المتواليـة، تدك أراضيهـم وتخرّب مدنهـم طـوال عهدهم، وفـي النهايـة اُضطـرّوا لمواجهة المغـول للدفاع عن أرواحهم، إلى أن خسـروا إمبراطوريّتهم بأسـرها للمغول في النهاية، بالرغم من هذه القلاقل كلّها على مدار مئتي عام، تمكّنوا من بناء حضارة بزغ نورها أقوى من حضارة الدولة البيزنطيّة والصليبيّين والمغول جميعًا.

تألّقـت هـذه الحضـارة المزدهـرة مـن عدّة أوجـه؛ انظـري إلى تلك الأحجـار الذهبيّة، فسـترينها أنـت أيضًا، وتأملـي آثارهم الثقافيّـة؛ يُعزى الفضل للسـلاجقة في إحياء الخلافة الإسـلاميّة، وإضفاء الهيبة والاحترام مجدّدًا على حكمها، وقد شجّعوا الحياة الدينيّة، ونشطوا أيضًا في المجالين العلمـيّ والأدبيّ باعثيـن روح إلهام جديدة في الحياة الثقافيّة الإسـلاميّة، ولمّـا كان السـلاجقة الأناضوليّـون عازميـن علـى تبـوّء مكانـة مرموقـة في النظام العالميّ وقتئذٍ، فقد بثّوا الحياة في العالم الإسـلاميّ بفضل نظم حكمهـم، وحرصهـم البالـغ علـى العدالة الاجتماعيّة، وأسـلوب قيادتهم القويّ، وتقاليدهم الدينيّة، وموقفهم المشـجّع لممارسـة التجارة والعمل الحرّ، وعنايتهم بالتعليم، وعِلاوة على هذا كلّه كان تقبّلهم للتعدّد الثقافيّ مكوّنًـا حيويًّـا من مكونات نجـاح مجتمعهم؛ فقد تقبّلـوا الأديان الأخرى كلّهـا فـي أراضٍ فتحوهـا؛ إذ كان هنـاك الـروم، واليونانيّـون، والأرمـن، والبروفنساليّون، واليهود، وقد ثبت أنّ هذا التقبّل للآخر نموذج اجتماعيّ فعّـال، جدير بالتقليد، بدءًا من العثمانيّين وصـولًا إلى الأمريكيّين، لكنّني أرى أنّ أعظم إرث ثقافيّ تركه السلاجقة هو خِطّة بنائهم؛ إذ شيّدوا صروحًا مذهلة حجمًا، وتنوّعًا، وحرفة، وعلى صعيد المعمار كان السلاجقة سِراع

التعلّم، استقوا دروسًا من أساليب التصميم كلّها في أراضٍ مرّوا بها؛ وبهذا اخترعوا أسلوب بناء ثريًّا ثراء حَساء يعدّونه في حملات التخييم أثناء سيرهم نحو الغرب.

بدأ السلاجقة إعداد حَساء حضارتهم بوضع لمسات من أصولهم الغنيّة العائدة لآسيا الوسطى، ثمّ أضافوا دروسًا دسمة تعلّموها من احتكاكهم بالفنّ المعماريّ الفارسيّ، وحسّنوا النَّكْهة بالاستفادة من الصروح العباسيّة والعربيّة الرائعة كلّها، واخترع السلاجقة منظومة تشييد معقّدة تعتمد على قناطر تحمل الأوزان الكبيرة، وكان لشكل الأواوين الأربعة -أربع قاعات مفتوحة مقبّبة تحيط بساحة مركزيّة- في مساجد إيران تأثير قويّ على ما شيّدوه كلّه؛ فأصبح هذا الشكل هو التصميم العامّ للسلاجقة الأناضوليّين في بناء أَخوانهم، ومدارسهم -كليَّات التعليم العالي-، وقصورهم، ومستشفياتهم، ثمّ أضافوا إلى الطبخة لمستهم الخاصّة من خلطة التوابل المشتملة على ميزات زخرفيّة وتقنيات وأساليب بناء مبتكرة.

لم تكن هذه الصروح مجرّد آثار بارعة جديرة بالمشاهدة؛ إذ أدرك السلاجقة أنّ المباني العمليّة النافعة من شأنها أن تدعم مباشرةً أهدافَ إمبراطوريّة أرادوا تشييدها؛ يا لَذكاء سلاطين قونيا السلاجقة! أدركوا أنّ الرخاء الاقتصاديّ ركن أساسيّ من أركان مجتمع أرادوا بناءه، وأنّ ذلك يتوقّف على سلاسة تدفّق البضائع إلى أنحاء الإمبراطورية، وفهموا أنّ تشجيع البيع والتجارة سيمكّنهم من تحقيق رخاء يقوم بتحفيز النموّ الفكريّ والفنيّ؛ ولتطبيق هذه الرؤية، كان من الضروريّ دعم التجارة والواردات من خلال تشجيع نقل البضائع عبر أراضيهم؛ فكيف نجحوا في إغراء التجّار لجلب بضائعهم إلى الأناضول، ثمّ المغادرة بحقائب مليئة بمنتجات سهول الأناضول؟ كان السلاطين بحاجة إلى منطقة تجاريّة واعدة، آمنة، جاذبة لممارسة التجارة؛ فشمّروا عن سواعدهم، ووضعوا

خِطّة تجاريّة مفعمة بإصرار لا يضارعه سوى إصرارهم في ساحة القتال.

حرَص السلاطين السلاجقة كلّهم، واحدًا تلو آخر على غزو مدن ساحليّة مهمّة كانوا يحتاجون إليها لإنشاء طرق تجاريّة بعرض الإمبراطوريّة تصل بين السواحل، مثل: أنطاليا عام ١٢٠٧م، وسينوب عام ١٢١٤م، وأخيرًا ألانيا عام ١٢٢١م، وتمثّلت الخطوة التالية في هذه الرؤية الإصلاحيّة للطُّرُق التجاريّة القائمة بالفعل المستمرّة تخدم التجّار أجيالًا؛ كان هؤلاء السلاطين من الفطنة بحيث أدركوا أنّ كسب النقود يستوجب إنفاقها؛ فتضمّن منهجهم العمليّ لبناء مملكتهم الاستثمار في تشييد بنية تحتيّة قويّة من الجسور والطرق؛ فقاموا بإصلاح الطرق والجسور القديمة وتقويتها بعد أن كانت مهملة تالفة طوال سنوات من الحروب المتواصلة والزلازل، وشيّدوا طرقًا وجسورًا جديدة، وأعادوا تمهيد طرق التجارة الآشوريّة، والفارسيّة، والرومانيّة القديمة بين الشرق والغرب، وأضافوا إليها وصلات جديدة بين الشمال والجنوب للربط بين الموانئ المفتوحة حديثًا على ساحلي البحرين الأسود والأبيض المتوسط؛ وبذلك أضحت البلاد مفتوحة أمام التجارة؛ فطريق الحرير القائم، الرابط بين الصين ومنطقة البحر المتوسّط، أصبح يصل إلى قونيا، حيث يبدأ الطريق الطويل الممتدّ حتى قيصري متفرّعًا ليصل، إمّا إلى الشمال نحو: سيواس، أو أرضروم، والبحر الأسود، أو منطقة القوقاز، وأخيرًا إلى شمال إيران، أو يصل جنوبًا إلى ديار بكر، وبلاد ما بين النهرين وجنوب إيران.

كانت آخر خطوة في خِطّتهم التجاريّة المرسومة توفير بنية تحتيّة للتجّار أنفسهم؛ فأنشؤوا -بطول طرق التجارة- ما يزيد عن مئتي محطّة متوسّطة للتجّار، يطلق عليها اسم الخان أو النُّزُل؛ ويرجع الفضل إلى هذه الشبكة -المبنيّة لسدّ احتياجات المدن الكبرى في الإمبراطوريّة- في زيادة حجم التجارة المحليّة والدوليّة على سواء.

كانت هذه الأنزال أو الاستراحات تُبنى على مسافات متساوية بامتداد أهمّ الطرق التجاريّة، بحيث يفصل بينها مسيرة يوم على ظهر الجمل -قرابة أربعين ميلًا- بطراز معماريّ يلبّي احتياجات المسافرين كلّها؛ فالجدران منيعة قويّة، بها مساحات لتخزين البضائع، وغُرف للحرّاس، وإسطبلات، وغُرَف للنوم، ومطابخ، ومراحيض، ومساجد، وأقبية، وكانت تعمل بوصفها محطات تجاريّة ونُزُلًا للمبيت في الوقت ذاته، وإذا أردنا أن نصف هذه الأخوان من منظور عصريّ، فهي مزيج من محطّة شواحن، ونُزُل، ومستودع؛ فهي كمحطّة الشواحن؛ لأنّها توفّر مكانًا للتزوّد بالمُؤَن، المتمثّلة يومئذٍ في تهيئة مكان للدوابّ للراحة والسقي وإصلاح نِعالها، وعلاجها من أيّ مرض يصيبها خلال الطريق.

كانت الأخوان تتيح للتجّار فرصة لتناول وجبة مطبوخة، والاستراحة من وعثاء السفر، والحدّ من الشعور بالوحدة أثناء الرحلة من خلال الاختلاط بغيرهم من المسافرين، وهي تشبه النُّزُل؛ لأنّها تتيح للتجّار المبيت في غرف مريحة، ملائمة، تشبه المستودع؛ لأنّها تمنح التجّار الفرصة لتفريغ بضائعهم في مكان آمن، وتخزينها، وتصنيفها، وإعادة تغليفها إذا لزم الأمر، والاستعداد للمرحلة الشاقّة التالية من الرحلة.

يعدّ الخان بما يمنحه من خدمات اجتماعيّة مختلفة من أكثر المؤسّسات المجّانيّة السلجوقيّة؛ إذ بُنيت الأخوان لتكون مؤسّسات خيريّة؛ إذ كان من حقّ أيّ مسافر -بصرف النظر عن جنسيّته، أو دِيانته، أو طبقته الاجتماعيّة- أن ينزل فيها مجّانًا ثلاثة أيّام تشمل المبيت، والمأكل، والرعاية الطبيّة، وخدمات أخرى، وذلك كلّه على نفقة الدولة؛ إذ كان السلطان، أو رجال البلاط، أو الأثرياء ينشئون مؤسّسات للاضطلاع بعمليّة بِنائها، وتمويلها، وصيانتها؛ فستظلّ هذه الأخوان تُذكر لكرمها، ولدورها الخيريّ، وقد شدّت انتباهكِ بالفعل في أدرنة -يا سيّدة ماري-؛ فكان بمقدور التجّار مقابلة غيرهم في الخان، وعقد

تحالفات تجاريّة، وتكوين صداقات جديدة، ولعبت الأخوان دورًا خيريًّا مهمًّا؛ إذ أسهمت في نشر الأخبار والمعلومات في أرجاء الإمبراطوريّة؛ إذ فيها يلتقي أشخاص من كلّ الأنحاء والبلدان، ويقصّون القصص، ويتشاركون مواقف مرّوا بها بمختلف اللغات، ويتبادلون أخبار بلدانهم، ثمّ تنتقل هذه الأخبار إلى القرى والمدن؛ فكانت الأخوان مركزًا للمعلومات، ومركزًا محليًّا للأخبار، وما يشبه مكتبة عامّة شفهيّة؛ يستطيع أيّ شخص يسافر عبر الطرق الممتدّة بطول تركيا اليوم أن يشاهد ما بقي منها، في شكل استراحات رائعة على جانبي الطريق، تمنح خدماتها لسائقي الشواحن والمسافرين على حدٍّ سواء.

ما إن امتلأت خزائن الدولة بالأموال المحصّلة من هذه الأخوان، حتى تحوّل السلاطين السلاجقة إلى تشييد صروح معماريّة مبتكرة أخرى، اشتهروا بها، وهي: المدارس -الجامعات-، والمستشفيات، والجوامع، واستخدم سلاجقة الأناضول الحجارة لتُعمّر المباني طويلًا، ونبذوا الآجُرّ الذي استخدمه أسلافهم الإيرانيّون، فاخترعوا مباني تناسب احتياجات إمبراطوريّة أرادوا تشييدها، تتّسم بالنموّ والنشاط، وقد تجلّت ألمع مواهبهم في مبانيهم المدنيّة، ووظيفتها، وشخصيّتها منذ لحظة تشييد المدرسة النقطة المحوريّة للمدينة؛ استُخدم تصميم الأواوين الأربعة في المدارس لبناء حرم يتّسع لغرف دراسيّة، ومساكن الطلبة، وقاعَ الدرس، بالإضافة إلى الخدمات الملحقة، واستُخدم التصميم نفسه في بناء المستشفيات والمراكز الطبيّة، مع الالتزام دومًا بإضافة منارتين متناظرَتين حول البوّابات للترحيب بالزوّار؛ وتُعدّ هذه المدارس والمستشفيات من أروع آثار تركيا اليوم، مثل: مدرستي كاراتاي وإينجه في قونيا، والمدرسة الخاتونيّة في قيصري، ومدرسة دار الشفاء الطبيّة في سيواس، ونُزُل جوهر في قيصري؛ بهرني ذلك كلّه بشدّة؛ لأنّه بدا تخطيطًا عمليًّا جدًّا، نابعًا من حكمة بالغة، ونابضًا بالحياة في الوقت نفسه.

أحببت دراسة الفنّ الإسلاميّ منذ أن كنت في الجامعة؛ فقد اقتبس الفنّ الإسلاميّ من حضارات كثيرة، ومزج وأضفى رؤيته الخاصّة ليخترع شيئًا فريدًا، كثقافة الولايات المتّحدة من عدّة أوجه، انجذبت أيضًا إلى اختلاف يميّز الفنّ الإسلاميّ، وأردت أن أعبر بوابة حديقة الفن الأوربّيّ الغربيّ المعتاد؛ لأعرف كيف يفكر الآخرون؟ وبمَ يؤمنون؟ وكيف يشيدون؟ أردت أن أتعقّب مجموعة من الفروق الفنيّة، ومن بين فنون العصور الإسلاميّة كلّها كانت فنون سلاجقة الأناضول هي الأقوى تأثيرًا في نفسي، أضف إلى ذلك تميّز القرن الثالث عشر؛ لما شهده من ارتقاء كبير في أنحاء العالم كلّها؛ من الذي يسعه ألّا يتأثر بعصر شهد الحروب الصليبيّة، وجنكيز خان، ودانتي، وشعر التروبادور البروفنساليّ، والماجنا كارتا -ميثاق الحريّات-، والكاتدرائيّات القوطيّة الشاهقة في فرنسا؟ عصر جدير بأن يعيشه المرء، وقد عاش السلاجقة وسط هذا كلّه، ومنحوا إسهاماتهم الخاصّة لإثراء هذا القرن؛ انجذبت بشدّة إلى روح تسامحهم، وتقبّلهم للشعوب الأناضوليّة كلّها بعد دخولهم الأناضول، وأعجبني اجتهادهم العمليّ ورغبتهم في صياغة هُويّة اجتماعيّة جديدة تحترم الأسلاف، لكنّها في الوقت نفسه تمنح جدول أعمال مُلزمًا، وانبهرت انبهارًا خاصًّا بربطهم الفنّ المعماريّ بالتنمية الاجتماعيّة، وبإدراكهم أنّ الفنّ والمعمار يمكنهما، بل ويجب عليهما ألّا يساعدا في بناء نموذج مثاليّ فقط، بل أن يضمنا رخاء المواطنين أيضًا؛ أردت أن أتعرّف إلى هؤلاء الناس وإلى مجتمعهم على نحو أفضل، وفوق هذا كلّه أردت أن أتعرّف إلى فنّهم المعماريّ على نحو أفضل.

من بين المباني السلجوقيّة كلّها بدت الأخوان أكثر جِدّة ونفعًا؛ حيّرتني هذه المجموعة من المباني العمليّة الجامعة بين المنفعة والجمال؛ يعرّف المهندس المعماريّ، المدنيّ، الرومانيّ، الشهير فيتروفيو الفنّ المعماريّ بأنّه: «القوّة، والمنفعة، والجمال»، وهذه الأخوان تضرب خير

مثال على المزج الموفّق بين هذه السمات الثلاث: فالقوّة تتمثّل في أنّها مشيّدة بقوّة بالطبع، والمنفعة تتمثّل في أنّها تفي بغرض تشجيع التجارة، والجمال يتمثّل في بذل الجهد لتشييدها جميلة.

في الواقع وافقت الأخوان ذوقي؛ فهي كبيرة وقويّة ودقيقة ونشيطة، وكلّها سمات لا تحظى بإعجابي في الفنّ المعماريّ فقط، بل أيضًا في الناس، والأطعمة، والأدب، والفنون؛ فقرّرت لحظتها في ذلك المكان دراستها دراسة تفصيليّة؛ فقضيت الثلاثين عامًا الماضية أَتَتَبَّع خطوات السلاجقة، وأفتّش عن آثارهم، وأتعرف إلى تاريخهم، وأقرأ أدبهم، وأتشرّب تعاليم دينهم، وأستوعب عاداتهم العلميّة؛ تعلّمت كثيرًا عن هذه الأمور كلّها، وأصبحت معجبة جدًّا بالسلاجقة لعدّة أسباب واضحة؛ فبالإضافة إلى رؤيتهم العمليّة النشيطة المشجّعة للعمل الحرّ، أرى أنّهم وضعوا الأساس للقيم الإنسانيّة كلّها الملهمة للثقافة التركيّة، مثل: التسامح، والحريّة، والحبّ، والصداقة، والكرم، والتعدّد الثقافيّ، وحسن الجوار، والوطنيّة، واحترام الآخرين، وفي الوقت نفسه شيّدوا طرقهم وأخوانهم، فأرسوا أحجار الأساس لتنمية القيم الثقافيّة، مثل: التقدّم، والتعليم، والنموّ الاقتصاديّ، والتخطيط طويل الأجل، والتوسّع، والسعي الفكريّ، والعدالة، وحريّة الرأي؛ وعمِل حكّامهم على تحسين حياة المواطنين ببناء المدارس، والمساجد، والمستشفيات، والمراصد، وحفز علمائهم ومثقّفيهم إلى التقدّم في الطبّ والكيمياء والقانون والفلك، وتغنَّى كتّابهم الشعبيّون وشعراؤهم ومتصوّفوهم بمُثل الحبّ، والودّ، والكرم، والروحانيّة في إبداعاتهم، وحَصَدَ فلّاحوهم الكادحون الرخاء من الأرض السوداء، وحسّن تجّارهم أسواقهم بمهارة وأمانة، وشيّد معماريّوهم وفنّانوهم آثارًا تغنّت روعتها وتفاصيلها بهذه القِيَم عبر سهول الأناضول؛ ليسمعها الناس جميعًا.

أمكـن تشـييد الكنوز المعمارية كلّهـا الباقية لنا من هـذه الحقبة؛ لأنّ هؤلاء السلاطين -أصحاب الرؤية- أمروا ببناء مبانٍ تدفـع عجلة التجارة، فحفـزت تشـييد أنواع أخـرى مـن المباني المصمّمـة لتعكـس تطلّعاتهم الثقافيّـة، وبصورة أو بأخرى يبدو هـذا التخطيط مألوفًا لمن يراقبون تركيا المعاصرة أو يعيشـون فيها؛ فنمور تركيا الأقوياء اليوم ليسـوا سوى أحفاد لسـلاجقة قونيـا، وأنا أؤمن أنه لـولا الجهود الجبّارة للسـلاجقة في بداية إنشاء الإمبراطوريّة، لَما قامت الدولة العثمانيّة أو جمهوريّة تركيا الحديثة؛ وليس بمسـتنكَر أن يعود أتاتورك لقلب دولة السـلاجقة الجغرافيّ المثاليّ كي يقيم عاصمته في أنقرة، وينشر من هناك رؤيته لتركيا المستقبل، ويعيد ترسيخ الشعور بالفخر النابـع من العمل الجادّ والتقدّم والصناعة بوصفها مقوّمـات المجتمـع الناجح، وهـي مقوّمات نراهـا تتجدّد يوميًّـا بحيويّة في تركيا اليوم.

ولمـا كان كثيـر من الأخوان ما زال قائمًا حتى الآن، أمكنني دراسـتها وتحديـد مبـادئ عامّـة تتعلّق بهـا، مثـل: تصاميمها، ورعايتها، وشـبكات الطُّـرُق عليهـا، وزخارفها؛ فاسـتمتعت -بوصفي أمينة مكتبة- بالدراسـة، والتصنيف، وموازنة هذه المجموعة الفريدة الموحّدة، وشـرعت في تنفيذ خُطـة منهجيّـة مدروسـة، لزيـارة منطقة تلو أخـرى كلّ عـام، ورؤية أكبر عـدد ممكن من هذه الأخـوان، كنت أخطّط للرحلات قَبْلًا بمنتهى العناية والاهتمـام، وأزور عـدّة أخوان في المنطقة الواحدة في كلّ رحلة، وكانت جلّ مغامراتي في رحلاتي مثيرة شائقة كالآثار نفسها.

كثيـرًا مـا واجهـت تحدّيـات متزايـدة للعثور علـى خـان، كالخرائط الخاطئـة، والطـرق الوهميّـة، والعلامات الإرشـاديّة الغائبـة... إلخ، لكنّ أكثرهـا خيبـة أمل كانت قلّة عدد الأتراك القادرين على مسـاعدتي، حينما أسـأل عـن الاتّجاهات؛ فاجتمـع ضعف لغتي التركيّـة، ولهجتي الأجنبيّة، واختلاف اللهجات المحليّة؛ ليجعل سؤالي عن الاتّجاهات تحدّيًا إضافيًّا،

ومن الصعوبات الأخرى التي واجهتني أنّ الشخص التركيّ يكره الإقرار أنّه لا يعرف ما تسألين عنه، أو لا يعرف مكانه؛ علمت أنّ الأتراك يفضّلون حفظ ماء وجوههم على الاعتراف بالحقيقة، ويجدون أحيانًا صعوبة في التمييز بين النظريّة، والرغبة في المساعدة، والتطبيق؛ فهم يخبرونك أنّ شيئًا ما موجود، أو أنه في مراحل التخطيط لمجرّد إسعادك، ولا يعرف سائقو سيّارات الأجرة غالبًا المكان المراد الذهاب إليه، لكنّهم نادرًا ما يعترفون بذلك، ويظلّون يدورون في دوائر، ويرفض التركيّ أن يريك شيئًا يعتقد أنّه لا تجدر بك رؤيته، وهذا أشبه بنادل لا يسمح لكِ بتناول ما تشائين في المطعم، إذا لم يعتقد أنّه في مصلحتك، وفي حال عرف سكّان المنطقة كومة صخور قديمة أتحدّث عنها، فإنّهم يحكّون رؤوسهم دهشة من رؤية هذه المرأة الأجنبيّة -السائلة عن الاتّجاهات- لتلك الكومة، أحيانًا أحسدك -يا سيّدة ماري-؛ لأنّك حظيت دائمًا بدليل خاصّ يرشدك أثناء جولاتك في القسطنطينيّة، ولما كنت أوّل من يرتاد هذه الأماكن، كثيرًا ما وجدت نفسي في طُرُق معقّدة ملتوية للعثور على خان، لكنّني حظيت خلال ذلك بفرصة قضاء الوقت في التحدّث مع الناس، وتعلّم عادة محليّة ما كنت لأتعلمها، لو أنّني وصلت وجهتي مباشرة؛ لذا صارت قاعدتي الذهبيّة هي أن أتحلّى بالصبر، وألّا أتعجّل أو أنزعج؛ لأنّني لا أستطيع الحصول على إجابة سريعة عن أسئلتي، وأن أتقبّل حقيقة أنّ أيّة إجابة أحصل عليها قد تشوبها المبالغة، وأن أستغلّ هذه اللحظة في إقامة علاقات مثيرة؛ فالأفضل أن تسألي خمسة أشخاص مختلفين عن الاتجاه، وتأخذي برأي الأغلبيّة، وأن تأملي في العثور على مبتغاكِ بعد السفر خمس مئة ميل إلى مكان حارّ جافّ، وراقبي كلّ شيء حولك جيّدًا، وفي نهاية المطاف ستتمكنين من العثور على خان تبحثين عنه؛ لأنّ التركيّ لن يقول أبدًا: «لا أعرف»، ويتركك حائرة، ثقي من ذلك؛ لن يجيبك التركيّ أبدًا: «لا أعرف»، إذا سألته عن معلومات،

بل سيقضي يومًا كاملًا بصحبتك محاولًا مساعدتك في العثور على كنزك؛ لأنّ التركيّ شخص متفائل دومًا.

ظهر هذا التفاؤل أثناء بحثي عن خان ألتين أبا؛ كنت قد قرأت في عدّة كتب أنّه ما زال قائمًا، ورأيت صورًا قديمة له في كتب عتيقة، لكن كان من المستحيل العثور عليه على الطريق خارج قونيا في البقعة المذكورة؛ أوقفت سيّارتي عند حديقة شاي على جانب الطريق؛ لأسأل عن الاتّجاهات، وما أعقب ذلك كان أحد المشاهد الفوضويّة التركيّة العاديّة، فأنا أمام ستّة أتراك يمنحون ستّ إجابات منقوصة مختلفة؛ في البداية اقتربت من رجل تركيّ في الخمسين من عمره ظنًّا منّي أنّه يعرف جيّدًا منطقة عاش فيها، سكت برهة ثمّ قال:

– نعم، لقد سمعت به، نعم، دعينا نفكّر، هذا صحيح، ثمّة خان في مكان ما...

لم يبدُ أنّه يعرف شيئًا، لكنّه لم يرد أن يبدو عديم النفع، وواصل الحديث محاولًا منحي ألطف إجابة ممكنة، ثمّ ظهر تركيّ آخر، واشترك في الحديث، ثمّ صاح قائلًا:

– أعتقد أنّني أستطيع المساعدة! أنا واثق أنّ أصدقائي سيعرفون!

وأخذني إلى مكان ساحر يحوي طاولات لجلوس المتنزّهين تطلّ على بحيرة تكوّنت بفضل سدّ ألتين أبا؛ فرأينا ثلاثة أتراك جالسين هناك يستمتعون بالمشهد المطلّ على الماء، ويدخّنون اللفائف، ويحتسون الشاي، وضع التركيّ الثالث كوب الشاي، وأشار إلى الجهة الأخرى من البحيرة:

– أترين روضة أشجار الحور الماثلة هناك؟ الخان خلفها، يمكنك العثور على طريق يوصّلك إلى هناك.

فقاطعه رفيقه التركيّ الرابع قائلًا:

- كلّا، -يا أخي- إنّه ليس هناك قطعًا، لقد انهار ذلك الخان تمامًا، ولم يعد له وجود!

وبدأت نبرة الصوت تعلو، ثمّ تدخّل رفيقهم الخامس قائلًا:

يا أخويّ، أنتما مخطئان؛ فالخان في قاع البحيرة!

ثمّ اشتعلت نقاشات حامية تتضمّن كثيرًا من التلويح بالأيدي، والصياح، والوكز، واللكز مع طلب الشاي مرّة أخرى بغية التوصّل إلى الرأي السليم، أمّا التركيّ السادس -بدا أنّه الحكم في هذا الموقف-، فقد أنهى النقاش بقوله:

- أينما كان، فأنا متأكّد أنّه بخير؛ لا تقلقي بشأنه سيّدتي السائحة، وستجدين كثيرًا من الأخوان القديمة في هذه المنطقة، إذا رغبت في رؤية أحدها، ثمّ ما الذي يميّز ذلك الخان خِصّيصَى؟ سأساعدك في العثور على خان آخر سينال إعجابك!

في الحقيقة كان التركيّ الخامس على حقّ؛ إذ راح خان ألتين أبا ضحيّة مأساويّة لتنفيذ مشروع السدّ التركيّ القويّ؛ فقد غمرته المياه، حينما شُيّد السدّ عام ١٩٦٧م.

في مناسبة أخرى واجهت صعوبة في العثور على خان كيركجوز بالقرب من أنطاليا؛ إذ حدث موقف مشابه لما حدث في ألتين أبا، حينما توقّفت لأسأل عن الاتجاهات؛ إذ هرول خمسة أتراك تجاهي، وبدؤوا يتناقشون فيما بينهم، ولكلّ واحد منهم رأيان؛ احتدم النقاش بينهم احتدامًا شديدًا حتى إنّني بدأت أخشى العواقب، وقبل أن أدرك ما يحدث ثارت ثائرتهم وبدؤوا يتدافعون ويتضاربون؛ تراجعت خشية إصابتي بإحدى اللكمات، لكنّ فارسًا شهمًا من بينهم رفض أن يدعني أنسحب خُلسة،

ورغم أنّ صديقيه لم يصدّقاه، وأهاناه، وأوسعاه ضربًا، فإنّه صمد، وأخبرني بدقّة كيف أصل إلى هناك، ووصف لي علامات واضحة أبحث عنها في طريقي، شعرت بالثقة لسماعي وصفه الواضح، وتتبّعت العلامات واحدة تلو أخرى: نقطة شرطة عسكريّة، وشجرة ذات ثلاثة أفرُع، ومنزل بابه أخضر، وتبيّن لي أنّه كان محقًّا؛ وحده التركيّ الحقيقي يتحمّل هذا العناء كلّه؛ ليساعد غريبًا حتى وإن أُصيبَ بكدمة حول العين!

كما ذكرت من قبل، تعلّمت من تجاربي الكثيرة أنّ الأشخاص لا يدركون دائمًا الثروات التاريخيّة في منطقتهم، أو في المناطق المجاورة؛ فلا تشكّل قطعة معماريّة، تاريخيّة، رائعة -قطعْتِ خمسة آلاف ميل لمشاهدتها- لهم سوى كومة من الأحجار؛ يبذل السكّان المحليّون جُهدهم كلّه لفهم سؤالي، لكنّهم في أغلب الأحيان يهزّون رؤوسهم فقط، ويخبرونني: ''أنّهم لا يعرفون ألبتّة ما أتحدّث عنه''، ورغم هذا تعلّمت طريقة مفيدة ساعدتني بحقّ، وهي أن أتزوّد بصور أو رسوم كلّما أمكن؛ ذات مرّة خطّطت للقيام برحلة إلى أغيردير لزيارة خان جلاندوست، قرأت أنّه يقع على بُعد ثلاثين ميلًا شمال المدينة؛ توجّهت إلى موقف سيّارات الأجرة البلديّ بجوار محطّة الحوافل، وتحدّثت إلى خمسة عشر سائقًا أو يزيد من الجالسين فوق جدار منخفض يقضون وقتهم في احتساء الشاي، ولعب الطاولة، وقراءة الصُّحُف، والثرثرة، واستخدام السُّبَح، والتدخين؛ عقدت آمالي على أحدهم، علمًا منّي أنّ البقيّة سرعان ما ستشارك في الأمر على أيّة حال، وسألته: إن كان يعرف الخان؟ وما إذا كان بوسعه أن يوصلني إليه؛ تيقّنت فورًا أنّه لا يعرفه، لكن -كالمعتاد- لن يصرّح بذلك، تلا ذلك جلسة استشاريّة، أدلى فيها كلّ سائق من الخمسة عشر سائقًا برأيه، دون أن يكون لدى أيّ منهم علم بمكان الخان؛ علت الأصوات، وبدأ الجدال والتلويح بالأيدي، وخشيت هذه المرّة أيضًا نشوب عراك بالأيدي؛ ولكي أنقذ الموقف، أخرجت

صورة منسوخة من كتاب قديم للخان بغيتي، وعرضتها عليهم، وبالفعل تعرّف أحدهم إلى كومة أحجار أعنيها، رغم أنّه لم يعرف ماذا تمثّل في واقع الأمر؟ فانطلقنا إلى هناك، ولم تواجه السائق أيّة مشكلة في العثور على الموقع، وكم استمتعت في تلك الظهيرة بسرده تاريخ المبنى وتوضيح السبب في أنّه أكثر من مجرّد كومة أحجار؛ أنا واثقة أنّه نقل كلامي كلّه للسائقين الآخرين العائدين إلى منازلهم لينقلوا ما سمعوه إلى أسرهم، ومنذ ذلك الحين اكتشفت أنّ الصورة -إذا توفّرت- تعدّ وسيلة استكشاف قيّمة في موقع البحث!

لم أشعر بالإحباط قطّ بعد انتهاء مغامرة البحث عن خان، كان الشعور نفسه ينتابني، حينما أقف أمام أيّ خان؛ كنت أتأمّله بعيني مراهقة مفتونة برؤية نجم سينمائيّ، وكما هو الحال مع كرات الثلج المتساقطة والقطط، كان كلّ خان يختلف عن الآخر؛ كانت ألوان الأحجار مختلفة، وزخارف البوّابات أقلّ أو أكثر تفصيلًا، والموقع قاحل أو وارف، والمكان وسط حقل أو على جانب الطريق؛ أحببت الوقوف طويلًا أمام الأخوان، كي أستوعب هذه الاختلافات كلّها، وأستشعر تاريخ كلّ منها، وأتصوّر الطاقة المبذولة لتشييدها قبل ثماني مئة عام؛ أردت أن أحفظ شكل واجهاتها وشخصيّاتها المتفرّدة، وأن أعقد صداقة مع كلّ خان قبل أن أدخله وأنا أكنّ له كلّ احترام!

كان دخول الأخوان يثير المشكلات في أغلب الأحيان؛ فيقودني ذلك إلى المشكلة الثانية التي واجهتني في رحلاتي؛ فإمكانية دخول الأخوان لم تكن مضمونة قطّ، ودائمًا ما يشكّل تحدّي الدخول مغامرة قائمة بذاتها؛ من المحبط والمخيّب للآمال بعد إنفاق كثير من النقود لزيارة تركيا، وبذل كثير من الجهد في الرحلة الشاقّة إلى سهول الأناضول، ثمّ محاولة العثور على خان، أن ينتهي الأمر برؤية سلسلة حديديّة ضخمة وبوابة موصدة بقُفْل، لكن تَذكّري، هذه تركيا، ولا شيء مستحيل هنا،

يمكن تحقيق كلّ شيء بمساعدة الأصدقاء المستعدّين لفعل أيّ شيء لتلبية مطلبك بأيّة طريقة ممكنة؛ وتركيا عامرة بالأصدقاء، خاّصة في حالة امرأة تريد دخول خان!

ذات مرّة حينما وصلت أعتاب خان دوراجان، جفَل قلبي؛ إذ كانت البوّابة موصدة بإحكام بقُفل وسلسلة رهيبين، وفجأة رأيت بائع خَضراوات يعدو نحوي من الناحية الأخرى من الطريق، وكأنّه سمع تنهيدتي بأذنين تسمعان أخفت الهمسات، وطلب منّي أن أنتظر حيث أنا، ثمّ ركض باتجاه آخر الشارع، وأمسك كنّاس بلديّة كان يحمل سلسلة من المفاتيح، لم يفهم المسكين لماذا جذبه البائع من ذراعه؟ وانتزع مِقشّته من يديه، وجرّه نحوي في أول الشارع؛ تجادل بائع الخضراوات مع الكنّاس كثيرًا، وفي النهاية استسلم الكنّاس المسكين المرتبك، واستخرج المفتاح من سلسلته، وفتح لي الباب كي أدخل الخان، كان قد رُمّم ليصبح مركز تسوّق، لكنّ أجنحته لم تؤجّر بعد، وكان المكان خاليًا تمامًا، ثم علمت أنّ الخضريّ لم يقصد أن يقلّل من شأن كنّاس الشارع أو أن يعامله بقلّة احترام؛ فقد أدرك بفطرته أنّ الرجل رغم ضعف حاله، سيشعر بأهميّته، إذا ساعد شخصًا حضر من مسافة بعيدة، وأنّني سوف أمنح الكنّاس مكافأة تقديرًا لوقته وجهده؛ فاصطاد الخضريّ عصفورين بحجر واحد؛ إذ ساعد كلينا على فعل الخير، وتمكّنت أنا من رؤية الخان بغيتي.

مرّة أخرى ذهبت إلى مدينة إنجاجوس؛ لأزور مجمع كارا مصطفى باشا وخانه العثمانيّ الواسع، كان الخان موصدًا بإحكام؛ وجفَل قلبي كالمعتاد، ورآني شخص تركيّ أكتام أي أقف على أطراف أصابعي محاوِلة اختلاس النظر من النوافذ المرتفعة، فاقترب، وطلب منّي أن أصطحبه، وحينما وصلنا إلى ركن بعيد من أركان الجدار الخارجي للخان، طلب منّي أن أنتظر قليلًا، ثمّ اختفى، لم يمرّ وقت طويل

حتى شاهدت حجرًا في الجدار يتحرّك في مكانه، ثمّ يسقط بالداخل، ثمّ امتدّت يد لي من الداخل، وجذبتني عبر الفتحة الصغيرة لأدخل الخان، وبينما تلوّيت خارجة من الفتحة إلى ساحة الخان الفسيحة، رأيت الرجل ينتظرني بابتسامة عريضة، يملؤه الفخر بعمله البطوليّ، لكن مرّات كثيرة أخرى كنت أعثر على الخان الموصد بالقفل في مكان مهجور تمامًا، دون أن تظهر يد تركيّة سحريّة لتجذبني عبر ممرّ سريّ؛ حينئذٍ كانت الشخصيّة الأمريكيّة التقليديّة تتحرّك فيّ، وتمنحني الجرأة بطرق ما كنت أحلم بها وأنا في وطني؛ فكنت أضغط قوامي الكبير نسبيًّا لأمر عبر فتحة صغيرة في الباب، أو أتسلّق الجدران عبر التمسّك بشقوقه لأؤمّن موطئًا لقدمي لأتمكّن من تسلقه، ثمّ أرمي نفسي في ساحته، كقطة متلصّصة، وعندما يكون الجدار بالغ الارتفاع، أكدِس مجموعة من الأحجار لأصنع سلّمًا يعينني على بلوغ القمّة، كنت أجري، ثمّ أثب من كومة أتربة، مثل لاعبي القفز على الزان في الألعاب الأوليمبيّة؛ حقًا كان الانضغاط للمرور عبر باب ضيّق، وتسلق الجدران لمشاهدة الأخوان من الداخل يهوّن خدوش مفاصل الأصابع، وتكسّر الأظافر، وجرح اليدين، والكدمات، والتواء الكاحلين، وجرح الركبتين؛ لن أنسى أبدًا شعوري في أولى زياراتي لخان بازار، حينما تجرّأت على فتح الباب عَنوة، وتسلّلت إلى الداخل، برغم الصيحات الغاضبة لقطيع الإوَزّ الواقف بالخارج يحرس الخان، وبينما شققت طريقي عبر الشجيرات البرّيّة، والأعشاب الغزيرة منصتة إلى صوت رفرفة لجناحي حمامة في الرواق، استطعت أن أرى ما وراء ركام الأنقاض والأحجار الملقاة؛ اكتشفت خانًا ذا تصميم غاية في القوّة، وعناصر زخرفيّة رائعة تنمّ عن غاية البراعة، الأكثر من هذا أنّني استشعرت روح المكان؛ شعرت أنّ التاريخ يتحدّث إليّ، وأدركت أنّ واجبي منذ تلك اللحظة فصاعدًا أن أعيد الحياة لقصّة هذا الخان ولغيره من الأخوان

الكثيـرة الأخرى، ورغم أنّني كنـت مبدعة ورياضية جدًّا خلال محاولاتي مشـاهدة الأخوان داخلها، لم يسـبق لي أن كسرت قفلًا أو بابًا كي أتمكّن مـن الدخـول؛ فحينمـا كان الأمر يصل إلـى حدّ الكسـر والاقتحام، كنت أعتمد على الأتراك كي يقوموا بهذه المهمّة.

مـرّة أخـرى رأيـت بنفسـي كيـف لا يألـو الأتـراك جهـدًا في سـبيل مسـاعدتك، وخدمتك، والتأكّد من تلبية مطلبك، وغالبًا ما يقومون بذلك بطُـرُق مثيرة، ولعلّك تذكرين -يا سـيّدة ماري- أنّنـي حدّثتك عن زيارتي السـارّة لمدينة سـيرت شـرق تركيا؛ إذ نجوت من هجوم حشـد غوغائيّ مـن أطفال الشـوارع، ولما أفلتّ منهم عزمت علـى تحقيق رغبتي وزيارة المسـجد الكبيـر في المدينة، وهو من أقدم المسـاجد فـي تركيا، بُني عام ١١٢٩م؛ خـرج رجـل من المنـزل المجاور، وأخذني تحـت جناحه، كما لو كان ملاكًا حارسًـا مرسـلًا من السماء، لكنّ المسـجد -وا أسفاه- كان موصدًا بإحكام بالسلسلة والقُفل، فهزّ الرجل رأسه أسفًا، وبعد ثوانٍ قليلة رأيت طفلًا قذرًا من أطفال الشـوارع يحـدّق فيّ ويتعقّبني؛ بدا كأنّه يعتذر عمّا بدر من رفاقه، وقال: إنّه مستعدّ لمساعدتي، ثمّ أخرج الشريد الصغير من جيبه قطعة معدنية طويلة جدًّا تبدو، كنصل سكين مكسور، وبدأ يعبث بالمِـزلاج، ثمّ أمسـك القفـل، كما لو كان لصًّا محنّـكًا، وفي غضون ثوانٍ انفتـح القفل، وفتـح الصغير الباب أمامي في خُيَلاء كـي أدخل؛ فمنحني المتعة المحرّمة لتأمّل هذا المسجد الرائع من الداخل؛ دخل معي الملاك الحارس والشـريد، شـريكاي فـي جريمة ارتُكبت لخدمـة إحدى الزوائر، ولخدمة التاريخ!

ليـس هناك شـيء يُعدّني لمغامراتي الخارقـة لدخول بعض الأخوان؛ منها ما حدث في نُزُل زازادين خارج قونيا؛ يقـع الخان في منطقة مهجورة إلى حدّ ما، وسط حقول مزروعة، حينما اقتربت من الخان ورأيت الأبقار

ترعى أمامه، تذكّرت منظرًا رأيته، وحينما حدّقت المرّة الأولى في هذه الأحجار الذهبيّة في مدرسة جوك في سيواس قبل عشر سنوات؛ سرت عبر حقل مهجور مليء بالحطام والأشواك لأصل إلى البوّابة الرئيسة الرائعة، وبالطبع كانت مغلقة بالقفل؛ فجفَل قلبي بقوة تضارع قوّة القفل؛ ليس عدلًا أن يخيب أملي بعد تلك الرحلة الشاقّة الحارّة عبر حقل شائك مزّق حاشية ثوبي، وأدمى كاحليّ!

ما من أثر لأيّة حياة في المكان باستثناء تلك الأبقار والذباب الطنّان فوق رأسي؛ وفقدت الأمل في أن تمتدّ إليّ يد العون؛ فجدران الخان بالغة الارتفاع، فأدركت أنّني لن أتمكّن من تنفيذ إحدى محاولاتي المضنية لتسلّقها؛ كنت محبطة، لكنّني عازمة على تحقيق أقصى استفادة من الزيارة؛ فشرعت أسير حول الخان الشاسع كي أشاهد جدرانه الخارجيّة الرائعة، كانت مزيّنة بعدد هائل من أحجار منقوشة أُخذت من الكنائس البيزنطيّة، وبينما وقفت هناك أرسم على ورقة تصاميم إحدى الأحجار المعاد استخدامها، شعرت بشخص جواري؛ ظهر جانبي فجأة دون أن يصدر أيّ صوت، رجل غريب المنظر، أسود الشعر، ذو عينين جاحظتين، يرتدي زيًّا متّسخًا كَعْكيَّ اللون، وحذاء عسكريًّا، ويحمل بندقيّة سوداء طويلة من مقاس اثني عشر؛ تنّهدت، وفكّرت؛ كيف سأخلّص نفسي من هذا الموقف، وأنجو بحياتي؟ حدّق فيّ، ونظر إلى دفتري، وبدأ يتحدّث وعيناه الآبَنُوسيّتان تلمعان في ضوء الشمس؛ واجهت بعض الصعوبة في استيضاح كلامه المتداخل، لكنّني فهمت أنّه بدويّ يقتات على ما يصطاده من الأرض، وأنّه جاء إلى هذا المكان لاصطياد الطيور، وأخبرني أنّ الخان كان عامرًا بأنواع كثيرة من طيور سمينة يستطيع اصطيادها بسهولة، ثمّ قال:

- تعالي؛ سأريك.

وتبعته، رغم أنّني كنت قلقة جدًّا؛ هل أتبع رجلًا شريدًا، أشعث، ذا عينين جامحتين، وبيده بندقيّة، إلى منطقة مهجورة في أمريكا؟ لم أكن لأفعل ذلك أبدًا، لكنّنا في تركيا، فشعرت أنّ مغامرتي لن تنتهي نهاية مأساويّة، سرنا حتى وصلنا إلى واجهة الخان مرّة أخرى، فرفع بندقيّته دون أن يتردّد لحظة، وصوّب نحو الهدف؛ ظهر وميض، وسُمعت فرقعة أنهت أمر القُفل؛ فتدلّى من الجزء المعدنيّ المحروق في إطار الباب، ولم يعد يشكّل عائقًا أمام دخولي أو أمام ذلك الباحث عن عشائه؛ وبهذه الطريقة المبتكرة تمكنت أن أدخل أحد أروع الأخوان وأكبرها في تركيا؛ إذ كان -بالفعل- مليئًا بطيور سمينة، وبينما انطلق رفيقي الصيّاد خلفها، غادرت سائلة نفسي: "هل سأحظى مرّة ثانية بزيارة مثيرة كهذه؟"

بالطبع كان عليّ أن أعرف أنّني سأحظى بمغامرات دخول استثنائيّة أخرى؛ فبعد سنوات قليلة أوقفت سيارتي أمام خان قاراتاي بعد قضاء وقت عصيب في محاولة العثور عليه، وقضاء ساعتين محبوسة في السيارة وسط قطيع من الخِرفان كان في طريقه إلى السوق، وهناك أيضًا وجدت قطيعًا رائعًا من الإوَزّ يحرس البوّابة الأماميّة، وكانت الجدران مرتفعة يتعذّر تسلّقها، ورأيت سلسلة وقُفلًا يوحي شكلهما بأنّهما جديران بالتعليق على باب قصر طوب قابي، لا بوّابة خان مهجور؛ شعرت باليأس، فلن أتحمّل مرّة أخرى الفشل في زيارة خان! ركلت الباب محبطة، وحاولت أن أرفع السلسلة لأستشعر ثقلها، فلم يسبق لي أن شاهدت واحدة بهذه الضخامة، ظهر أمامي صبيّ لا يتعدّى الخامسة من عمره، وحدّق في وجهي المحبط، وشعر بتعاستي من زفراتي، وتجهّمي، وركلي الباب؛ جرى مسرعًا وبعد عدّة دقائق سمعت من بعيد صيحة ودّية:

- مرحبًا، حضرتُ لأساعدك.

نظرت لأرى تركيًّا يهرول نحوي، ويلوّح لي مبتسمًا، والصبيّ الصغير يعدو خلفه محاولًا اللَّحاق به، عند اقترابه منّي رأيته يحمل فأسًا في يده اليمنى، لم تكن مجرّد فأس صغيرة، بل فأس من شأنه أن يُسقط الشجر الأحمر، سألني:

- أعتقد أنّك ترغبين في الدخول؛ لا تقلقي، حضرت لأهتمّ بذلك؛ اتركي ليَ الأمر!

بينما كان الصبيّ الصغير ذو العينين النجلاوين يقف إلى جواره، رفع الرجل فأسه الضخم وشرع يهوي بها على سلسلة ضخمة كأنها تنّين ناريّ، ولمّا كان فارسِي الشَّهم فخورًا باستعراض قوّته ورجولته أمام فتاة تحتاج المساعدة، فقد ظلّ يهوي بقوّة على السلسلة محدثًا جلبة؛ وما هي إلا ضربات أربع قويّة حتى انكسرت إحدى حلقات السلسلة، وتحرّر القُفل، وبجَهد جهيد دفع الباب الخشبيّ صارًّا، ثمّ استدار نحوي، وبابتسامة عريضة عِرَض بوّابة الدخول، وبحركة مسرحيّة من ذراعه أشار لي بالدخول، كما لو كنت السلطان علاء الدين كيقوباد نفسه، ولوهلة شعرت فعلًا أنّني، مثل ذلك السلطان الصالح!

كانت محاولات الاقتحام والدخول كلّها جديرة بالمخاطرة، فلحظات المتعة الناجمة عن اكتشاف هذه الأَخوان لا تقدّر بثمن؛ كانت إحدى لحظاتي المفضّلة، حينما عبرت سيرًا على الأقدام الجسر ذا الثلاث عشرة قنطرة -من أطول جسور تركيا- قريبًا من خان كيسك كُبرو، وأنا أنصت إلى صوت البقبقة لمياه النهر الأحمر أسفل الجسر، وصيحات صبية صغار يستحمّون في مياهه، واستمتعت بقضاء وقت بعد الظهيرة في خان إسيز جوار أبوليانت، بات مخزنًا لمنتجات المزارع؛ جلست وسط أكوام البصل الضخمة المخزّنة هناك، وشعرت بالدُّوار من رائحتها المُسكِرة،

ثمّ شرعت أساعد الفلّاحات في صفّ البصل أكوامًا حسب الحجم؛ ضحكْن منّي، حين تردّدت في العمل، أو ربّما ضحكن من لهجتي، أو ثيابي الغريبة، لكنّنا ضحكنا، وتشاركنا لحظة من لحظات الاتّحاد الأنثويّة، رغم ما بيننا من اختلافات؛ أذكر أيضًا أنّني استيقظت مبكّرًا يوم ما، وذهبت لزيارة تمثال السلطان علاء الدين كيقوباد عند مدخل مدينة ألانيا، فكّرت -وأنا واقفة أمامه- في حياة سلطان سلجوقيّ فتَح هذه المدينة عام ١٢٢١م، وكان مسؤولًا عن بناء كثير من هذه الأَخوان بغيتي، ظهر فجأة أحد عمّال البلديّة، واختفى داخل قاعدة التمثال، ثمّ شغّل الفوّارات كلّها في الحديقة المحيطة ليزيد من تأثير لحظة تقدير تاريخيّ أعيشها، وهذا مثال آخر للفتات لطيفة حدّثتك عنها يا سيّدة ماري.

عشت تجربة أخرى رائعة أثناء بحثي عن خان دوغو بايزيد، تحت ظلال جبل أرارات بالقرب من الحدود الإيرانيّة؛ ذات صباح وأنا واقفة في شرفة غرفتي بالفندق المواجه لمحطّة "سيم أرْ" للشواحن في الساعة السابعة والنصف، سمعت جلبة شواحن النقل الدوليّ المتأهّبة للمغادرة؛ شاهدتها تغادر مواقفها في موكب يضمّ سبعًا وخمسين شاحنة واحدة تلو أخرى؛ فتخيّلت مشهد التجّار وجِمالهم أثناء عبورهم كلّ صباح بوّابات الأخوان الضخمة السلجوقيّة، متأهّبين للانطلاق في الاتّجاهات كلّها ليسلّموا بضاعتهم ويبيعوها؛ لا تزال الطُّرُق التجاريّة السلجوقيّة مفعمة بالحياة حتى اليوم.

يسألني الناس جميعًا دائمًا عن الخان المفضّل لي، لكنّني لا أستطيع التحديد، كما لا أستطيع اختيار أفضل قصيدة، أو لوحة، أو صديقة، لكنّني أتذكّر بعض الأخوان أكثر من غيرها، غالبًا بسبب مغامرات الاقتحام والدخول المثيرة، أو بسبب مواقعها، أو مميّزاتها المعماريّة،

أو عبقها التاريخيّ، أو لأسباب شخصيّة؛ فأنا أشعر بالمهابة لدى رؤية خان شارافسا يقف كالنسر في موقعه المثير المطلّ على البحر الأبيض المتوسّط، وتعجبني الأبراج الضخمة لخان قاراتاي، تعكس قوّة صاحبه الوزير جلال الدين قاراتاي وبأسه، ويروق لي خانا أغزيقارا وساري بفضل أحجارهما المتلألئة بلون السُّكّر المحروق، وخان سلطان في قيصري بفضل رسوم الثعبان التنّين الآسرة المحفورة فوق ساحة جناح المسجد، ويؤثّر فيّ موقع خان كارجي المنعزل تمامًا، وتذهلني المكوّنات المتقنة لخان كيسك كبرو وذلك الجسر المجاور لا يُنسى، وأشعر بالضآلة أمام ضخامة ساحة خان كيركجوز، وبالإلهام من الزخارف الموحية على بوّابة خان إودير، ويحيّرني التفكير في أصول أحجار لامعة أُخذت من الكنائس البيزنطيّة لترصّع جدران خاني أوبروك وزازادين، ثمّة أمر واحد أكيد؛ فأنا أستطيع في تلك الأخوان كلّها سماع أصوات أصحابها تتردّد في الأروقة، مثل السلاطين: علاء الدين كيقوباد، وقاراتاي، ماهبري خاتون، وغياث الدين كيقوباد، كما يتّضح لك من قصص ذكرتها.

علّمتني زيارتي هذه الأخوان كثيرًا عن الأتراك، وعن الفنّ المعماريّ السلجوقيّ، ورغم عدم وجود خانين متشابهين تمامًا في التصميم، فإنّ الأخوان جميعها تتّخذ شكل مستطيل أو مربع، مع وجود قسم مغطّى أو عدمه في نهاية الساحة المفتوحة، وتعلّمت أن أقدّر كتل الحجر الجيريّ المحليّ عسليّ اللون المنحوتة ببراعة المستخدمة في بناء جدران تلك الأخوان المرتفعة الثخينة، ومررت أيضًا ببوّابات أثريّة رائعة، مزخرفة بأروع نماذج النحت الحجريّ بالطريقة السلجوقيّة، ودرت حول أسوار الأخوان لأرى الأبراج الضخمة الشبيهة بالقلاع الشامخة فوقها، ووقفت في ساحٍ شاسعةٍ تحيطها غُرَف، وحاولت أن أتخيّل تضارب الأصوات بين نهيق الحمير ولغات التجّار المتنوّعة أثناء عملية تحميل البضائع، وحينما

أمعنت النظر في الغُرَف المظلمة، حاولت أن أتخيّل استخدامها؛ هل كانت تُستخدم مخازنَ، أم حماماتٍ، أم متاجر إصلاح، أم صوامع حبوب؟ وتخيّلت أنّني أشعر بحرارة كوانينها، وأرى الضوء المختلج من شموعها يتراقص على الجدران، وحينما دخلت القاعَ الكُبَر المغطّاة وراء الساحة، استشعرت الرائحة النفّاذة للحيوانات في الإسطبلات هنا، وتخيّلت أنّني أسمع الأذان أثناء صعودي السُّلّم المؤدّي إلى منابر المساجد أو الدَّور العلويّ لمسجد مكعّب وسط الساحة؛ كان الصمت التامّ المخيّم على أغلب هذه الأَخوان المهجورة يسهّل عليّ مهمّة تخيّل الضجيج الصاخب الصادر حتمًا من العاملين فيها ومن التجّار والحيوانات.

فور عودتي إلى أرض الوطن وارتيادي قاعَ المطالعة في المكاتب، كنت أقرأ كلّ ما أستطيع عن السلاجقة وعن ثقافتهم وفنّهم المعماريّ؛ عرفت أنّ أهمّ صوادرهم كانت السُّكَّر المكرّر وحجر الشبّ المعدود أهمّ مثبّت كيمياويّ في صباغة الصوف، وعرفت أنّ أنشطة التجارة الرئيسة تركّزت في مُدُن قونيا وسيواس وقيصري، وتعرّفت إلى بضائع كثيرة كانت تفرّغ من فوق ظهور الجِمال القادمة من مصر، والصين، وآسيا الوسطى، وجورجيا، وسوريا، والعراق، والقوقاز، وكانت توضع في نهاية اليوم في ساحِ الأَخوان الكبرى في الأناضول؛ شملت هذه البضائع الأبازير، والأسلحة، والقطن، والصوف، والحرير، والمسك، والعطور، والزجاج، والكوبالت، والبارود، والخزف، واللآلئ، والجواهر، والفلفل، والذهب، والفضة، والعقاقير الطبيّة، والفِراء؛ عرفت أيضًا أنّ هذه القوافل كانت تعود من تركيا محمّلة ببضائع، مثل: القصدير، وحجر الشبّ، والسُّكّر، والبوراكس، واللازورد، والجلود، والموهير، والأخشاب، والمشمش، والزيتون، والقمح، والمنسوجات، والسجاجيد، والملح، فضلًا عن البريد، ووثائق حكوميّة رسميّة كانت تُنقل عبر هذه الطرق التجاريّة.

أذهلتني هذه المعلومات كلّها، واستمتعت بإعداد كراريس ضمّت رسوماتي، وصوري، وأبحاثي، وكان باستطاعتي أن أزور هذه الأَخوان كلّها مجدّدًا، كلّما شئت على صفحات هذه الكراريس، وشعرت بالفخر لامتلاكي دليلًا خاصًّا بي فيه حضارة السلاجقة وفنّهم المعماريّ، وذات يوم أدركت أنّ هذه المعلومات يجب ألّا تظلّ حبيسة كراريس مكدوسة فوق مكتبي؛ فقد شعرت -وأنا أمينة مكتبة- بضرورة نشر معلومات جمعتها ونظّمتها، فأردت -وأنا عاشقة تركيا- أن أزيد انفتاح العالم على هذا الفنّ المعماريّ؛ ووجدت أيضًا أنّ المعلومات المتوفّرة في الغرب عن الأخوان السلجوقيّة قليلة جدًّا، فتمنيّت أن أملأ هذا الفراغ؛ فقرّرت عام ٢٠٠٠م مع انتشار الشبكة العنكبوتيّة أن أشارك العالم محتويات كراريسي عبر هذا الموقع الشعبيّ.

كان الهدف الأعمّ لموقعي تثقيف الناس، وغرس شعور عامّ بتقدير فنّ الحقبة السلجوقيّة وتاريخها ومعمارها، كانت أهدافي في بادئ الأمر بالغة السهولة؛ إذ أردت أن أوفّر مصدر معلومات باللغة الإنجليزيّة للتعريف بالخان التركيّ، وأن أسرد قائمة وصفيّة بأَخوان لا تزال موجودة، وأن أقدّم موارد للراغبين في دراسة عمارة الأخوان، أو في زيارتها، لم أكن واثقة وقتئذٍ إن كان هناك من يهتم لأمر هذه الأخوان، أو يريد أن يزور موقعي، لكنّني قرّرت إنشاءه على كلّ حال، وصمّمته بنفسي دون مساعدة ألبتّة، ولن أنسى السعادة والشعور بالإنجاز، حينما رُفع عبر الشبكة العنكبوتيّة المرّة الأولى.

كان لي وراء هذه الأهداف العامّة المعلنة عدّة أهداف شخصيّة أساسيّة؛ أردت أن أقدّم هذه المعلومات لمجموعات المستخدمين المحتملة كلّها، لا المتخصّصين فقط في هذا المجال أو الجامعيّين، وأردت أن يكون هذا

الموقع دراسة جادّة، تتّسم بدرجة عالية من الوضوح تجعل المستخدم العاديّ غير المتخصّص يستمتع بها وفقًا لمستواه، واخترت شكل كتاب المعروضات لتنفيذ ما أردت، بدلًا من كتابة مقالات طويلة عن الموضوع، والأهمّ من الأسباب الأخرى كلّها أنّني أردت أن أشارك العالم حبّي لتركيا وإعجابي بها، وهذا يشبه إلى حدّ بعيد رسائلي أكتبها إليك -يا سيّدة ماري-؛ فقد أردت أن أعبّر عن تأثّري بتركيا وشعوري بالألفة تجاه شعبها وطبيعتها وتاريخها وفنّها ومِعمارها وآمالها؛ ولأنّني كرّست حياتي المهنيّة لمجال العلائق بين الثقافات، شعرت أنّ هذا الموقع وسيلتي لعرض اهتماماتي، ولإشاعة مزيد من التفاهم والاحترام المتبادلين.

على مرّ السنين منحني موقعي -*www.turkishhan.org*- كثيرًا من السعادة؛ فقد سُررت بتنظيم الصور، وكتابة النصوص، واختيار شكل لتقديم المعلومات، وتصميم الشكل العامّ، منحني الموقع مباهج أخرى، كالدافع إلى مواصلة بحثي، والتحدّث إلى الطلبة والصِّحافيّين عن عملي، لكنّ أكبر مكافأة حصلت عليها تمثّلت في رصد ردّ فعل الأتراك تُجاه رأيي في فنّهم المعماريّ وتاريخهم.

حينما أقول للغربيّين: ''إنّني مهتمّة بهذه الفئة المتناهية الصغر من التاريخ''، أجدني أقضي وقتًا طويلًا أشرح لهم مميّزات هذا العصر والسبب في إعجابي بهذه الحضارة، لكنّني أقضي وقتًا طويلًا أيضًا في شرح الشيء ذاته للأتراك غير المدركين غالبًا مدى ثراء هذه الحقبة من تاريخهم؛ غاب العصر السلجوقيّ تمامًا عن النظر لتواريه ظلال العصر العثمانيّ الحافل بمجد الأتراك وشهرتهم؛ فيقتصر ذكر السلاجقة في الكتب الدراسيّة على أقسام مختصرة، وكلّما عاش المرء بعيدًا عن مثلّث قونيا وسيواس وقيصري، قلّت معرفته بالحضارة السلجوقيّة؛ شعرت

بالسرور البالغ والرضا على مرّ السنين، كلّما شاركت الأتراك حماسي لهذه الحقبة، عِلاوة على أنّ بهجة تعلو وجوههم حين يشاركونني افتتاني بها تفوق في قيمتها أيّ ردّ فعل تلقّيته في الغرب.

استضافني التِّلفاز التركيّ، وحالفني الحظّ أن أكون موضوع مقال من صفحة كاملة نُشر في إحدى الصُّحُف التركيّة، مدعّمًا بصور لي وللأَخوان، بالإضافة إلى حوار عن عملي؛ هذه سيّدة أمريكيّة أجنبيّة اتّخذت (قدريّة) اسمًا لها شغَلت اهتمام الأتراك؛ بدأتُ أتلقّى رسائل من أنحاء تركيا كلّها بسبب المقال، يخبرني مرسلوها: ''أنّهم استمتعوا بقراءته وبمعرفة المزيد عن هذه الحقبة''، ومن خلال هذه الرسائل عرفت أنّ كثيرًا من الأتراك اكتشفوا هذه الحقبة من خلال موقعي، وأخبرني بعض الأتراك أنّهم يخطّطون لقضاء عُطَلهم بصحبة الأسرة في زيارة الأخوان، وأرسلوا لي صورًا، وكتبًا، وقصائد، ودعوات لزيارتهم؛ إنّه عرض بالغ الكرم للطيبة والاحترام المميّزين، وقد أشرت إليهما كثيرًا في حديثي معك -يا سيّدة ماري-؛ زرت بالفعل بعض تلك الأسر، وعقدت صداقاتٍ أساسُها هذا الاحترام المتبادل للتاريخ، وشاهدت كيف ملأ هذا الموقع المتواضع الأتراك فخرًا بتراثهم؛ فأثلج ذلك صدري أكثر من أيّ شيء آخر كنت أتصوّره، حينما قرّرت في بادئ الأمر أن أنشئه.

عرفت أيضًا من ردود الأفعال على موقعي أنّ فنون الزخرفة السلجوقيّة، رغم طول فترة تواريها خلف شهرة الفنون العثمانيّة، بدأت تلقى التقدير في عيون الأتراك، والفنّ السلجوقيّ شأنه شأن أيّ فنّ يشكّل أساسًا لحضارة ما، يسعى للتأكيد أو التعبير في كلّ عمل عن روح الإنسان وتكوينه الجسمانيّ وعلاقته بالمجتمع وبالطبيعة، مع العناية بالتفاصيل وإبراز التقنيات والبراعة والأناقة؛ ماذا يخبرنا الفنّ السلجوقيّ إذًا عن

السلاجقة؟ يخبرنا أنّهم أشخاص واثقون، أقوياء، مسؤولون، يتّسمون بالصلابة، ميّالون لعبادة الله وخدمة الناس.

لم يغب عن ذهن الأتراك أنّ هذه الفنون يجب أن تُصان لضمان الهُويّة الثقافيّة؛ وبالفعل أُنشئ متحفان جديدان للسجاجيد في إسطنبول، وتمتلئ قاع مَزَادات لندن الإسلاميّة بمؤسّسة سوثبي بمُزَايِدين أتراك، وطرحت مؤسّسة باشا بهجة الشهيرة للمنتجات الزجاجيّة مجموعة رائعة من قطع تحاكي نماذج القرون الوسطى؛ وذلك كلّه يدل على اهتمام الأتراك المتجدّد بثقافتهم وافتخارهم بها.

أتذكر جيّدًا، حينما زرت تركيا عام ١٩٧٨م، وتمنيّت شراء سجّادة؛ وا أسفاه! لم تسمح لي ميزانيّتي -وأنا طالبة- بشراء سجّادة أحلامي؛ لذا خفضت سقف أحلامي من سجّادة إلى مجرّد خُرْج، وهو عبارة عن إحدى الحقائب المستخدمة لتخزين أيّ شيء من الملح إلى الملاعق؛ ظللت ألحّ على صديقي التركيّ ليساعدني في العثور على واحدة، فنظر إليّ متحيّرًا؛ لم يفهم طلبي، وبدأ كلانا يشعر بالإحباط؛ وأخيرًا رأيت واحدة في زقاق خلفيّ، وأريته إياها؛ فحدّق فيّ مندهشًا، وقال: ''خُرج حمار! أتريدين خُرْج حمار! هل جننت؟ لماذا تريدين خُرجًا قديمًا، رثًّا، قذرًا، مليئًا بالبراغيث والشعر؟''، لو طلبتُ هذا الطلب اليوم، فلن يُقابل بردّ فعل كهذا؛ لأنّ الأتراك -في رأيي- اكتسبوا احترامًا لتراثهم وفخرًا به؛ إذ تسمح لهم حِرَفهم التقليديّة اليوم بالاتّصال بالماضي، وهو أمر بالغ الأهميّة لهم؛ فبينما تمضي تركيا قُدُمًا نحو مستقبل جديد بسرعة هائلة، لا تزال هذه إحدى مجالات تُشكِّلُ نقطة تواصل مع أسرهم وأسلافهم.

من دوافعي السّرّيّة لإطلاق موقعي عن الأَخوان السلجوقيّة الرغبة في تحفيز الناس للمحافظة على التاريخ؛ فمنذ زيارتي أوّل خان، لاحظت

تغيّـرًا هائـلًا في طريقة صيانـة الأَخوان واسـتخدامها؛ فلكـي أمعن النظر في جواهر رُصِّعَت بها دائرة البروج بواجهة مدرسة جوك في سيواس عام ١٩٧٨م، اضطُررت أن أمرّ بين أبقار تطحن الحشـائش بأسـنانها في سلام أمام بوابة المدرسـة، أمّا الآن فقد صارت المدرسـة مصونة وسـط عمرانٍ حديـث، كمـا هو الحـال في كثير مـن الأَخـوان؛ من الضـروريّ الحفاظ علـى الأخوان الباقيـة حاليًّا للأجيال القادمة، لا أقصد معماريّين سـيأتون لدراسـتها فحسـب، بـل أيضًا لأطفـال أتراك سـيقرؤون سـيرة حضارتهم من خلال زيارتها.

تحوّلت آثار العهد العثمانيّ إلى متاحف فُتحت للجمهور، أو رُمّمت بمهـارة لإعادة اسـتخدامها علـى النحو الملائم في المدينتين السـياحيّتين الرئيسـتين إسـطنبول وأنقـرة، وتحوّلـت المـدارس العثمانيّـة بمهـارة إلى عيادات طبيّة: بورصة يلدرم؛ وأيوب سوكولو؛ وأوسكودار ميهريماه، ومكتبات: شمسـي باشـا في إسـطنبول، ومكتبة ميهريماه في أوسـكودار، أو مسـتودعات تجاريّـة: خـان أكـوز محمّد في ألوكيشـلا، وخـان أدرنة، وخضعت بيوت مدن عثمانيّة بأكملها، مثل: سافرانبولو، لأعمال الصيانة؛ ولاقـت آثـار العهـد السـلجوقيّ اهتمامًا مماثـلًا؛ فالمدارس والمسـاجد الرائعـة فـي قونيا، وسـيواس، وأنطاليا، وقيصـري تقدّم للطلبـة المهتمّين بدراسة المعمار السلجوقيّ مادّة ثريّة لمعاينة هذا الفنّ.

تُشـكّل الأَخوان أيضًـا تراثًا معماريًّا جديرًا بالاهتمـام، وعندما بدأت أبحـث عنهـا في بدايـة الثمانينيّات، لم تكـن الحكومة التركيّـة قد صانت سـوى قليل منها، وحوّلتـه إلى متاحف، من أبرزها خانان للسـلطان علاء الديـن كيقوبـاد، أحدهمـا يقـع على الطريـق بين قيصـري وقونيا، والآخر يقـع على طريـق قيصري سـيواس، ومنذ ذلـك الحين حوّلـت الحكومة

التركيّة عدّة أَخوان أخرى إلى متاحف، من أبرزها خان أغزيقارا وخان ساري، نعم هذه أمثلة مثيرة للإعجاب ولكن ما تزال هناك آثار أخرى مهجورة تتداعى، ويُعتقد أنّ نحو نصف الأخوان المبنيّة في الأصل قد ضاعت، وليست هذه مفاجأة في أرض دكّتها حشود الصليبيّين والمغول وهزّتها الزلازل المروّعة، ورغم هذا لم تتهدّم أَخوان كثيرة بسبب هذه الأحداث، بل بأيدي مواطنين معاصرين غافلين؛ فقد هُدمت أخوان كثيرة لتحقيق الربح، عن طريق بيع أحجارها بوصفها عناصر للبناء، أو بيعها لهواة جمع القطع الأثريّة، وهي ظاهرة شائعة في أوربّا، ومن العواقب المأساويّة الأخرى اختفاء خان نتيجة فيضان سدّ، حدث هذا في خان ألتين أبا الغامض، الواقع على الطريق بين قونيا وبيشهير؛ لحسن الحظّ لا يزال كثير من الأخوان باقيًا في حالة جيّدة؛ إذ كانت في أغلب الأحوال تُستخدم في قراها مخازن للمخزون المحليّ، أو مباني زراعيّة تعاونيّة لتخزين المِكَان الزراعيّة، والماعز، والغنم، والمحاصيل، وهو استخدام ليس ببعيد عن غرض إنشائها الأصليّ.

على مدار خَمْس السنوات الماضية انتهجت الحكومة التركيّة سياسة إبرام عقود من الباطن مع شركات خاصّة أو متعهّدين لتنفيذ عمليّات لتجديد أثر على أن تستغلّه هذه الجهة تجاريًّا فور الانتهاء من عمليّات التجديد؛ وهكذا تحوّلت بعض المدارس السلجوقيّة في قيصري، مثل: الصاحبيّة، وأفجونو، وسراج الدين، إلى متاجر لبيع الكتب، وتحوّلت مدرسة دار الشفاء في سيواس وخان خاتون في قيصري إلى مراكز تسوّق وحدائق شاي، ويجري حاليًّا تنفيذ الإجراء نفسه على الأخوان المعدّلة لتلائم الاحتياجات المعاصرة؛ إذ يُستخدم خان دورأغان مركزًا تجاريًّا للتسوق، وتستخدم أخوان أخرى مطاعم للسائحين، مثل: هوروزلو، ونيدي، وتَستخدم البلديّة خان كيسك كبرو دارًا للمناسبات وحفلات

الأعراس، ويُستخدم خان ساري الآن مركزًا ثقافيًّا متعدّد الاستخدامات يرتاده السائحون، ويحوي خان ألارا كثيرًا من أجنحة بيع تعرض المنتجات اليدويّة والحِرْفيّة للسائحين القادمين من ألانيا بالحوافل، ثمّة استخدامات أخرى أقلّ شيوعًا للأخوان؛ إذ تحوّل خان قادين إلى متجر للأثاث، وتحوّل خان شارافسا إلى ملهى للرقص، وتحوّل خان تَرَجان إلى قاعة ألعاب رياضيّة، وافتتح مسؤولو بلديّة قونيا خان زازادين بعد تجديده عام ٢٠٠٧م؛ يراودني شعور غريب حين أفكّر أن بوّابته الأماميّة تُقتحم أمامي بطريقة مثيرة بطلقة من بندقيّة صديق، لتُفتح الآن أمام جموع الزائرين، وثمّة مشاريع أخرى نُفّذت في أخوان خاتون، وأزينا، وحكيم؛ إذ جرى تنظيف مواقعها وتأجيرها دون تخصيص مشاريع كبرى فيها.

أصبح الأتراك في حياتهم اليوميّة أكثر وعيًا بالحاجة إلى الحفاظ على آثارهم المعماريّة التاريخيّة؛ فخلال السنوات القليلة الماضية، زاد صدور كتب عالية الجودة تضمّ صورًا جيّدة وتوثيقًا شاملًا للآثار، واعتاد الأتراك سنوات كثيرة نشر كتب تحمل الطابع العرقيّ عن مختلف مناطق تركيا، وتحوي صورًا بالأبيض والأسود للآثار التاريخيّة المحليّة، وأسطول شواحن القمامة، وعربات الإطفاء، والمحاصيل، والأزياء المحليّة؛ تشكّل هذه الكتب مجتمعة مع مفردات العاميّة المحليّة، والأمثال، والأغاني الشعبيّة كتاب معروضات يضمّ لمحات لشعب فخور، وقد بدأت هذه الكتب تزداد رقيًّا، وباتت الآن مدعومة بأسطوانات مضغوطة وأسطوانات فيديو رقميّة تحوي صورًا ذات جودة احترافيّة؛ التقيت ثلاثة مصوّرين مشهورين في قونيا -أحمد كوش، وإبراهيم ديفارجي، وفوزي شيمشك- شرعوا في تنفيذ مهمّة لإنتاج صور رائعة عالية الجودة للآثار الثقافيّة كلّها في قونيا وتركيا، لضمان تسجيل تراثهم؛ بدأ الأتراك يتنبهون لثرائهم الثقافيّ، وينشرون الوعي به.

جديـر بالثناء مـا تبذله الحكومـة التركيّة من جهد للحفـاظ على هذه الأخـوان؛ فـلا أحد يتوقّـع بقاء المباني كلّهـا على حالها مـع مرور الزمن، مـع احتفاظها بشكلها واستخدامها الأصليّين؛ فالحياة تمضي، وفي مجال الحفاظ على الآثار التاريخيّة لا بدّ أن يبعث المرء حياة جديدة في المباني؛ فأيّ مبنى -شأنه شأن حضارته- يشكّل كائنًا حيًّا يولَد ثم يشِبّ ثم يشيب، وفـي هذا السـياق من المشـجّـع رؤية هـذه الأخوان يُنتفـع بهـا في القرن الحادي والعشرين؛ فمن خلال تشجيـع استخدامها لأداء وظيفة اجتماعيّة معاصـرة، تصبح صيانتها أمرًا مؤكّدًا لإعادتها للحياة في العالم المعاصر؛ في شـهر مايو/أيّار عام ٢٠٠٨م أقيم حفل زفاف جماعيّ لخمسـة وثلاثين زوجًا في قونيا بخان زازادين المُجدّد حديثًا، وهي بداية عظيمة لحياة هذا الخان الجديدة، كما هي بداية لحياة هؤلاء الأزواج المحظوظين؛ فاحترام الإرث الثقافـيّ جـزء لا يتجزّأ من التحـوّل إلى دولة حديثة، ومن المأمول أن يسـتمرّ حمـاس الأتراك للحفاظ علـى الآثار بقدر تحمّسـهم لجوانب حياتهم الأخرى؛ فهل رأيتِ -يا سيّدة ماري- كيف أثْرَت الأخوان حياتي؟ فقـد عرّفتني دراسـتُها الفنَّ المعماريّ، ومنحتني الوعـي الثقافيّ، وقدّمت لـي مغامرات خياليّـة، وألقت لي الضوء على الأتراك أنفسـهم، وعرضت عليّ دَينًا يدين به الأتراك لأسلافهم السلاجقة؛ إنّه دَيْن كبير حقًّا!

أسـتطيـع أن أرى بوضوح أنّ قادة تركيا ومواطنيها يسـتخدمون اليوم فـي القـرن الحادي والعشـرين في إقامـة إمبراطوريّتهم الجديدة أسـاليب استخدمها السلاطين السلاجقة قديمًا، واليوم يطبّق الأتراك بنجاح الخِطَط السـلجوقيّة الخاصّـة بالعولمـة، والتجـارة الدوليّـة، وحريّـة التجارة على الطرق والموانئ الآمنة، وتحسين البنية التحتيّة، واحترام المدنيّة والحوار، وتهيئة مناخ من التسامح والتنمية الثقافيّة؛ أرسى السلاجقة شعورًا بالهويّة فـي نفـوس الأتـراك، ومنحوهـم الثقـة ليتعاملـوا بكـرم مـع الأجانـب،

وليشاركوهم طعامهم وأرضهم وثقافتهم بمنتهى الحريّة؛ لقد ربّوا مواطنين واثقيــن، فخورين بما حقّقوه وبما يســتطيعون تحقيقه، وليس من الصعب رؤية آثار الروح السلجوقيّة في أتراك اليوم الكادحين، بأكمامهم المشمّرة، وهم يضطلعون ببناء بلادهم بالهمّة وروح المبادرة والعزيمة نفسها.

كم كان السـلاطين السـلاجقة سـيفخرون برؤية مملكتهم في الوقت الحالي مربوطة بشـبكة من الطُرُق الممتازة القائمة مكان طُرُقهم التجاريّة! كــم كانــوا ســيفخرون بســدود ورخــاء اقتصــاديّ جلبَتْــه! ورغــم أنّ دولة الســلاجقة اســتمرّت مئتي عام تقريبًا؛ فقد أرست أحجارُ آثارها وأعمدتها الثقافيّــة أســاسَ تركيــا اليوم، ذلك الأســاس القــادر دون شــكّ على دعم مستقبل ستبنيه تركيا في القرن الحادي والعشرين.

"الفنُّ باقٍ"
قدرية برانتج

نسر برأسين رمز السلاجقة

مدرسة طاش في أكساراي

تذكرة نُزُل، قرية خان أغزيقارا

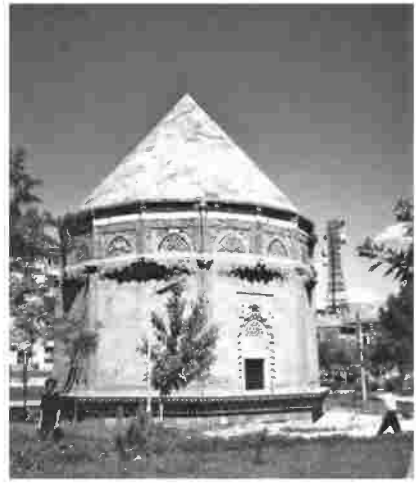

ضريح هودافنت خاتون في نيدي

كيسيك كبرو في سيواس

ضريح الملك غازي

روح السلاجقة مستمرّة

مجمع صاحيباتا المرمّم في قونيا
عام ٢٠٠٧م

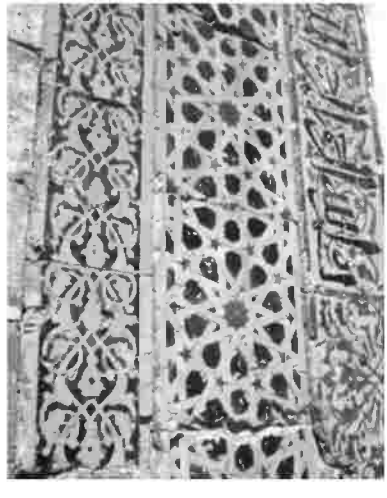

مدرسة برفاني في توقات

ديار بكر

خان أزينا بازار

Otel KERVANSARAY
TURİZM TİC. KOLL. ŞTİ.

☎ : 0 (386) 213 34 31 - 213 23 46 - 213 80 39 KIRŞEHİR

الرسالة السادسة والعشرون

عُقَد سريعة نشيطة

عزيزتي السّيدة ماري،

ثمّة وجه تشابه آخر بين تجربتَيْنا في تركيا؛ فكلتانا شهدت هذا البلد خلال فترة نشوء اجتماعيّ ثقافيّ مهمّة؛ إذ أقمت أنتِ في تركيا إبّان عهد لاله -التوليب-، وهو عصر شهد انفتاح الإمبراطوريّة العثمانيّة على الرُّؤَى والمُثُل الغربيّة؛ وأنا أيضًا أقمت فيها فترة شهدت تغيّرًا ملحوظًا، تحديدًا خلال ثمانينيّات القرن العشرين، حينما تطلّعت تركيا بعناية إلى رُؤَى الغرب وأساليب حياته؛ فأتاحت لي رِحلاتي إلى تركيا كلّ عام فرصة ملاحظة التغيّرات الطفيفة والمتوسّطة في أسلوب الحياة؛ إذ يفصل بين زيارة وأخرى فترة كافية تسمح لي بإحصاء عدد لَبِنات التغيير في جدار أساس تركيا الناشئة؛ تبرز أمامي كلّ عام اختلافات محدّدة، وقد سجّلتها كلّها في يوميّاتي بدقّة، حتى أكثرها تفاهة.

لا شكّ أنّ بعض الأمور لا تتغيّر في تركيا؛ كرائحة كولونيا الليمون، وفوضى أمين أنو، وجلجلة الأبواق لدى نفير مراكب البوسفور، ونداء المؤذن، ورائحة الشِّواء للحم الضأن، وصوت الملاعق في كؤوس شاي تشبه زهرة التيولب، ومذاق اللبن الخثير في كانليجا، ولون تلال الأناضول

البنيّة المائلة للصفرة، إنها مُتع خالدة، ورغم ذلك فكلّ عام يشهد ولادة عدد من المُتَع الأخرى!

لطالما أدهشتني مفارقة معالم جغرافيّة تركيّة تتبع القاعدة الذهبيّة نفسها في النظام النسبيّ (٣/٢) المعمول به في سجاجيدها؛ فمن عدّة أوجه أرى أنّ السجّادة ذات العُقَد ترمز لتركيا الحديثة المنسوجة حاليًّا؛ سجّادة يمكنك أن ترى فيها زخارف الماضي وألوان المستقبل، ونولها هو جغرافية تركيا ذاتها بما تحويه من جبال، وأودية، وغاب، وبحار؛ نَوْلٌ قويّ قوّةَ أشجار الدُّلْب البالغ عمرها خمس مئة عام، المنتشرة هناك، وتنتظم في هذا النول خيوط رأسيّة مضفورة، تمثّل القيم الاجتماعيّة التركيّة التقليديّة الأساسيّة للدين واللغة، والعادات، والهيكل الأسريّ، بينما تمثّل الخيوط الأفقيّة الحمراء المتقاطعة مع الخيوط الرأسيّة براعم ابتكار وتقدّم، وتواصِلُ ملءَ هذه السجّادة التركيّة من الأسفل إلى الأعلى حتى تكتمل، وتثبّت أيضًا كلّ صفّ من العُقَد في مكانه، وأخيرًا أرى العُقَد الصوفيّة مربوطة في هذه الخيوط الرأسيّة والأفقيّة لتمثّل حبكة وضفرة فريدتين تميّزان هذا التقليد والتغيير، ويبقى اختيار ألوان الصوف، وتصميم أشكال هذه العُقَد، وإظهارها، وتزيينها في يدي النسّاجة نفسها ورهن رؤيتها؛ إذ هي حينئذٍ شعب الجمهوريّة التركيّة أجمع؛ فحينما تجلس النسّاجة أمام نول فارغ، وتلتقط الصوف لتغزل أوّل صفّ من العُقَد، تكون قد رسمت بالفعل تصميم السجّادة في عقلها، لكنّها تعي جيّدًا أنّ التصميم المنشود ربّما لا يخرج دائمًا على نحو خطّطت له، وأنّ قوّة شدّ عُقَدها ستتغيّر من يوم إلى آخر؛ فالسجّادة كالحياة تبدأ بمقاصد ثابتة، لكنّها تتكيّف، وتتغيّر خلال سيرها.

راقبت شهورًا وسنوات صفوف العقد المتراكمة بعضها فوق بعض باتّجاه قمّة النول لسجّادة تركيا، والآن تنعقد العُقَد بسرعة ونشاط مع سعي السجّادة لبلوغ قمّة النول، ورغم هذا يبدو أنّ هناك نوعين

من الأيدي يعقدان هذه العُقَد السريعة النشيطة، وهذان النوعان لنسّاجتين مختلفتين، تعمل كلتاهما بقوّة، وجذبة، وشدّة، مختلفة؛ إحدى الأيدي لحِرَفيّي تركيا الحديثة، والأيدي الأخرى لتركيا التقليديّة، ويمكن رؤية هذين النوعين من الأيدي في أبراج الشِّقَق الخرسانيّة المصقولة، والبيوت الخشبيّة القديمة المتواضعة، وفي الشوارع الواسعة والأزقّة الخلفيّة الضيّقة، وفي الثراء الفاحش والفقر المدقع، ويمكن رؤيتهما في الصراع بين الشرق والغرب، وفي الرغبة في التغيير وضرورة تحقيق النجاح الاقتصاديّ في دنيا العولمة مقابل حنين ملحوظ لأسلوب الحياة التركيّ التقليديّ، وفي الارتباط القويّ بالدين الإسلاميّ مقابل الإعجاب بالعالم الأوربّيّ، وفي الالتزام الصادق بثقافة أتاتورك مقابل الحاجة الملحوظة لمزيد من الديمقراطيّة الحديثة، لكنّني أعتقد أنّه في خِضَمّ هذا الصراع لا يزال جلال تركيا العثمانيّة التي عرفتِها -يا سيّدة ماري- مغروسًا في نفوس شباب الأتراك المتفرنجين اليوم تحت القشرة الخارجيّة؛ يكفي فقط أن تخدشي هذه القشرة لتعرفي أنّ التركيّ سيظلّ تركيًّا، مهما تغيّر العالم من حوله، ومهما ارتقى مظهره وفكره؛ فلطالما حظي شعب تركيا الممتدّة بين قارتين بالفرصة النادرة للنظر إلى العالم بمنظارين مختلفين؛ أحدهما غربيّ والآخر شرقيّ؛ لذا فإنّهم يحدّقون في العالم عبر نظّارة مزدوجة الرؤية، ويُميلون رؤوسهم باستمرار لتعديل الصورة اللحظيّة، سواءٌ كانت قريبة مباشرة أم بعيدة على امتداد الأفق؛ لهذا -يا سيّدة ماري- أودّ أن أطلعك على بعض صفوف عُقَد رأيتها تُنسج في هذه السجّادة، وكما منحتِنا صورًا لدقائق الحياة اليوميّة في عهد التوليب، أودّ أن أصف لكِ بعض أمور شاهدتها خلال أربع فترات مختلفة للنموّ على مدار ثلاثين عامًا من السفر إلى تركيا؛ لا أسرد هذه القصص بغرض التحليل التاريخيّ أو السياسيّ، بل تسجيلًا للحياة اليوميّة؛ وهذه الفترات الأربعة نِتاج تصنيفي الخاصّ، لكنّني ألتمس العذر للمؤرّخين، والاقتصاديّين،

وعلماء الاجتماع، إن لم يوافقوا على تصنيفي هذا؛ بدءًا من تاريخ أولى رِحلاتي إلى تركيا عام ١٩٧٨م، وتأتي هذه الفترات على النحو التالي: سنوات الظلام من عام ١٩٧٨م إلى عام ١٩٨٥م، وعِقْد الصحوة من عام ١٩٨٥م إلى عام ١٩٩٥م، والعهد الاستهلاكيّ من عام ١٩٩٥م إلى عام ٢٠٠٠م، والانطلاق نحو الحداثة من عام ٢٠٠٠م حتى الوقت الحالي، وامتدادًا نحو المستقبل.

كما ذكرتُ لك -يا سيّدة ماري- كانت زيارتي الأولى إلى تركيا عام ١٩٧٨م خلال سنوات أعُدّها الآن سنوات الظلام، وأنا لا أصف هذه الفترة بهذا الوصف لكونها كانت فترة عصيبة فحسب؛ بل لأنّها كانت مظلمة بكلّ ما تعنيه الكلمة؛ إذ لم يكن لدى أحد في البلاد بأسرها مصباح كهربيّ؛ كان أصدقائي وأسرتي -لا سيّما أمّي المشغولة بحالي- يقولون لي في ذلك الوقت: "لماذا تسافرين إلى بلد يعاني المشكلات، وبه خطر داهم، وتعمّه الفوضى، فضلًا عن كونه عُرضة لتلك الزلال كلّها؟"، كانت أمّي محقّة بالفعل؛ فقد كانت السبعينيّات فترة عصيبة على تركيا.

مرّت تركيا خلال سنوات سبقت زيارتي بعقد حافل بالاضطرابات، والصراعات السياسيّة، والعنف والبؤس، وهي عقبات اجتمعت، كما يبدو لتقويض أساس تركيا وأهدافها وهُويّتها العلمانيّة الموروثة عن أتاتورك؛ كان الواضح على السطح أنّ المجتمع ماضٍ نحو تدمير نفسه؛ في عام وصولي تركيا أُعلنت الأحكام العرفيّة في المناطق الكرديّة منها، وكانت الصراعات دائرة بين اليمين واليسار، وساد عنف سياسيّ في الشوارع، وطرأت تغيّرات متواصلة على الحكومة، وانتشرت مقاطعات للبضائع، وأُغلقت المحاكم، وعمّت الإضرابات، والاعتقالات، والبِطالة، والتضخّم الهائل، وشحّت الفرص الاجتماعيّة والتعليميّة، واُقتُحمت السجون، وارتفعت أسعار النفط ارتفاعًا جنونيًّا، وانقسم الداخل بين العلويّين والسنيّين، وبين الأكراد؛ سار كلّ شيء في الاتّجاه الخاطئ.

في فرنسا حيث كنت أقيم وقتئذٍ، كانت تلك الأخبار السياسيّة العصيبة تُنشر في الصحف، لكن تردّدت أصداؤها أيضًا داخل فرنسا؛ ففي الفترة بين عامي ١٩٧٥م و١٩٨١م تعقّب ثلاث مرّات مسلّحون أرمن سِفاريّين أتراكًا إلى باريس وقتلوهم، وفجّروا مكتبًا للخطوط الجويّة التركيّة في شارع الشانزليزيه عقب أقلّ من عشر دقائق من مروري أمامه أثناء إحدى جولاتي بالشارع، وليس ذلك فقط، بل وقعت أكثر الحوادث تدميرًا عندما تحطّمت طائرة الخطوط الجويّة التركيّة للرحلة رقم تسع مئة وواحد وثمانين في الثالث من مارس/آذار عام ١٩٧٤م؛ لن أنسى ما حييت سماع نبأ سقوطها في المذياع فور استيقاظي صباح يوم أحد ربيعيّ مشرق؛ سقطت هذه الطائرة في غابات أرمينوفيل شمال باريس، وأسفر الحادث عن مقتل ثلاث المئة والستّة والأربعين راكبًا عن آخرهم؛ كان الحادث أسوأ كارثة جويّة في التاريخ، وأسهم إلى حدّ بعيد في تشويه سمعة الخطوط الجويّة التركيّة وسمعة الدولة التركيّة؛ إذ بدت أمام العالم ضعيفة، غير مسؤولة، لكنّ أشدّ ما لطّخ صورة تركيا من هجمات هو الفنون؛ إذ عُرض فيلم "ميدنايت إكسبريس" عام ١٩٧٩م؛ نجح الفيلم -أخرجه ألان باركر- في تصوير التعذيب والعنف السائدين في السجون التركيّة، وفي حشد الكراهيّة العالميّة ضد الأتراك، بعد أن ركّز على أسوأ مخاوف الغرب وتصوراته الخاطئة عن تركيا؛ سدّ الفيلم الآفاق المفتوحة كلّها أمام تركيا، وترك نُدوبًا عميقة ما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا؛ أفضى هذا الظلام الدامس كلّه إلى انقلاب عسكريّ في الثاني عشر من سبتمبر/أيلول عام ١٩٨٠م؛ تمخّض الانقلاب -المسمّى: "عمليّة العَلم"- عن ثلاث سنوات من الحكم العسكريّ من عام ١٩٨٠م إلى عام ١٩٨٣م؛ تمركزت الدبّابات في أركان الشوارع، ووقف الجنود ببندقيّاتهم الآليّة في كلّ شارع، وقُطعت الاتّصالات الداخليّة، وفُرض حظر تجوّل يبدأ من الساعة العاشرة مساء، وفُرض حظر على السفر للخارج.

أقمت في تركيا خلال الفترة الأولى من الانقلاب العسكريّ، في شهر ديسمبر عام ١٩٨٠م؛ ولأنني لا أعي جَسامة الموقف، قرّرت أن أزور أحد الأصدقاء أسبوعًا؛ لأتعرّف إلى شكل الحياة في إسطنبول في فصل الشتاء، ولم أتوّقع ما كان ينتظرني؛ إذ جعلني كلّ ما قرأته في الصحف عن الانقلاب العسكريّ أعتقد أنّ الحياة تسير كالمعتاد؛ بالفعل كانت الأمور طبيعيّة في جوانب كثيرة، لكنّ الحياة اليوميّة كانت عسيرة جدًّا؛ أوّل ما أثار دهشتي انتشار الجنود برشّاشاتهم في كلّ مكان؛ في مهابط الطائرات بالمطار، وفي كلّ مكان عامّ، وفي كلّ ركن من أركان الشوارع، وأمام كلّ متجر من المتاجر الكبرى، وفي دوريّات متواصلة ذهابًا وإيابًا.

كان الصوت المهيب للبيانات العامّة المدوّية من مكبّرات الصوت الضخمة يداهم المرء في الشارع، ولأنّ معرفتي باللغة التركيّة وقتئذٍ كانت شبه معدومة، استحال عليّ فهم فحواها، لكنّ نبرتها كانت كافية لأن أدرك جديّتها، وزادت رائحة الفحم الحجريّ الكريهة -المستخدم في التدفئة- الشوارع كآبة؛ إذ كان الجوّ قارسًا، وفي إحدى الليالي بدأت الثلوج تتساقط واستمرت ثلاثة أيّام؛ فكست الشوارع كساءً جميلًا لحظات قبل أن يغمرها الطين مجدّدًا، ويتركها فوضى موحشة؛ لست متأكدة من السبب، أهو البرد القارس أم تساقط الثلوج أم الخوف وعدم اليقين؟ لكنّ الصمت المخيف خيّم على أرصفة إسطنبول؛ فأسكت السمر، والصخب المألوفين لحياة الشارع التركيّ؛ لم تكن المنازل التركيّة أحسن حالًا، بل سادت حالة من العَوَز، وحاول الناس جميعًا مواجهة الموقف بكلّ ما أوتوا من قوّة صابرين، وظهر أفضل مثال على الالتزام القويّ بمبدأ التلاحم الاجتماعيّ -حدّثتك عنه من قبل يا سيّدة ماري-؛ إنّها روح العشيرة الموروثة عن أسلافهم تظهر على السطح، لتربط بينهم في أوقات التحدّيات والصِعاب؛ كانت أقسى صِعاب واجهتهم عدم توفّر التدفئة؛

فلـم يكـن هناك وقـود، وكما هي الحال دائمًا في مثـل هذه المِحَن، هجم فصل الشتاء ببرد لا يرحم!

قصصـتِ ذات مرّة -يا سـيّدة مـاري-: "كيف جلسـت في حديقتك المشمسـة بمدينة بيرا عصر يوم من شـهر يناير/كانون الثاني، واسـتمتعت بالجـوّ اللطيـف العـذب"، لكنّنـي أؤكّـد لـكِ أنّ الجـوّ لـم يكـن كذلك فـي شـهر يناير/كانون الثانـي أمضيته هنـاك؛ ظهرتْ وقتئذٍ وسـيلة مبتكرة لضمان الحياة؛ ففي كلّ مسـاء كان أفـراد عائلة صديقتي جميعًا يتجمعون فـي بيـت أحدهم، ويقضون كلّ ليلـة في بيت مختلف من بيـوت العائلة؛ كانوا يشـعلون المدفأة الثمينة وقتًا محدّدًا، فيحظى كلّ واحد منهم ببعض الدفء عدّة ساعات على الأقلّ، واعتدنا أن نرتدي عدّة طبقات من السُّتَر، والقفافيز، والأوشحة، والجوارب مجتمعين كلّنا في غرفة واحدة مكدوسين على أرائك منخفضة، نحتسـي الشـاي، ونتسـامر، ونشـاهد التلفاز انتظارًا لسـماع أيّ جديـد؛ أمضينـا ليلة تلو أخرى على هذا النحو، بلا أيّ نشـاط آخـر؛ لأنّ معظـم الأنشـطة المعتـادة كانت متوقّفـة أثناء فتـرة الانقلاب، لكنّ أغرب شـيء لاحظته كان نقص المصابيـح الكهربائيّة؛ عادة لم يكن في كلّ بيت سوى مصباح واحد، وكان كالتعويذة السحريّة يُنقل من مكان لآخـر، ويُفـكّ ويُركّب، حيثمـا دعت الحاجة للضـوء، فيُضطُرّ أهل البيت جميعًا للبقاء معًا كي يتمكّنوا من الرؤية أو القراءة!

كان الليل يحلّ مبكّرًا، في الساعة الرابعة عصرًا، وكان الظلام الدامس يخيّم على الشـوارع؛ فيجبرك على العودة إلى بيت يضاهيه ظلمة، ووقت الأصيـل لـم يكن ثمّة مـا يمكن فعله عـدا الجلوس في صمـت في غرفة مظلمـة، والتكـوّر فـي معطفـك بصحبة شـمعة متآكلة؛ لم يعوزنـا الوقود اللازم للتدفئة فقط، بل اللازم أيضًا لتسخين الماء؛ فبات الاستحمام تحدّيًا صعبًـا، وكان الطعـام متوفّرًا من دون زبـد، أو قهوة، أو كثير من الصابون، وكانـت المطاعـم خاويّـة تمامًـا، والمتاحف مغلقـة، وأصبحـت مواعيد

العمل للمتاجر والمصارف مضطربة، وحينما حان وقت رحيلي، توجّهت إلى المطار للّحاق برحلتي لأكتشف أنّ المطار مغلق، وأنّ الرحلات جميعًا عُلّقت حتى إشعار آخر؛ فتحوّلت خطَطي لعطلة أسبوعيّة قصيرة إلى محنة استمرّت شهرًا كاملًا، قبل أن أتمكّن أخيرًا من العثور على رحلة تقلّني إلى منزلي في باريس.

رغم انتشار حالة اليأس والإحباط، لم يفقد هؤلاء الأتراك إقبالهم على الحياة خلال الانقلاب؛ فقد عبرت جسر البوسفور أوّل مرة حينئذ في سيّارة عتيقة، وكانت عمّة صديقتي تدرُس الرقص العثمانيّ التقليديّ، وتعطيني دروسًا في الرقص كلّ مساء، واعتادت أن تضحك من حركاتي الرعناء ضحكًا طويلًا كصبرها؛ رأيتُ بهجتها ورشاقتها، حينما رقصت رمزًا لما في تركيا كلّه من تفاؤل؛ فاقتنعت أنّ الأتراك سيساعدون البلاد على المرح حتى انتهاء هذه الفترة المظلمة الباردة.

أحمل ذكريات مؤلمة عن أعوام الانقلاب المظلمة من زيارات تالية؛ فبعد انتهاء فترة الانقلاب وعودة المصابيح الكهربائيّة للمنازل، خلت المصارف والمباني العامّة من الإضاءة، وتكرّر انقطاع التيار الكهربيّ؛ فكم من وجبة عشاء أُكلت على أضواء الشموع للضرورة لا للشاعرية! واكتظّت شوارع إسطنبول بسيّارات أمريكيّة ضخمة ثقيلة الحركة من الخمسينيّات، تعمل سيّارات أجرة شعبيّة، مثل: "دي سوتو"، و"ريجال شيفروليه" طراز عام ٥٨م، و"بونتياك" ذات اللون الأحمر الملكيّ؛ وبفضل هذه البلاد العامرة بالحِرفيّين المهرة ظلّت هذه الخيل العصريّة الأصيلة في أبهى حُلّة، تنشر الأضواء الكاشفة المبهرة فوق صفحة البوسفور الزرقاء؛ وعجّت شوارع إسطنبول أيضًا بأسراب من الباعة الجائلين منادين على بضاعتهم نداءات أشبه بالأغاني، ينادون على: الخبز بالسمسم، والقَثّد الصابح، والحليب، ولفائف التبغ المفردة، والماء، والصُّحُف، وتذاكر اليانصيب؛ وفي المناطق التجاريّة المزدحمة في بيوغلو وأمين أنو،

تدافع الحمّالون يحملون البضائع على ظهورهم كالإبل، وجابوا الأحياء المزدحمة المحيطة بالسوق بكفاءة وسرعة أكبر من أيّة شاحنة أو عربة تجرّها الحيوانات؛ ذات مرّة رأيت حمّالًا يحمل على ظهره أثاث حجرة طعام كاملًا حتى الطاولة، وخزانة الأدوات، والمقاعد! -خَفِي هؤلاء الحمّالون الآن-، وكان كتّاب العرائض والنسّاخ ينصِبون طاولاتهم في أغلب الحدائق والأسواق، ويستخدمون آلاتهم الكاتبة لكتابة كلّ شيء؛ بدءًا من العرائض الرسميّة إلى الوثائق الحكوميّة إلى الرسائل الغراميّة للمحبوبات البعيدات لخدمة قرويّين قصدوهم.

برغم ما حَفِلت به إسطنبول من بقايا مجد إمبراطوريّتها العثمانيّة وذكريات شوارع رائعة ورَدَ ذكرها في روايات بيير لوتي، ظلّت في معظمها مدينة تتداعى وقتئذٍ؛ كانت هناك مبانٍ مهجورة، وجدران متصدّعة، وخرائب للقُمامة، وأزقّة مليئة بالنباتات المعترشة والنُّفايات، وكانت المنازل الخشبيّة المهدّمة، بأبوابها وأُطُر نوافذها المتداعية، تميل للأمام بدرجة تجعل السائر في الشارع يخشى أن تسقط عليه، وأُضيف إلى هذه الأزمات الحضريّة بدءُ غزو الفلّاحين الريفيّين، وازديادُ الأحياء العشوائيّة؛ كان عدد السكّان عام ١٩٧٨م، حينما زرت إسطنبول أوّل مرّة أربعة ملايين نسمة، وبحلول عام ١٩٨٨م بلغ عدد السكّان اثني عشر مليون نسمة.

تطاير دخان اللفائف في كلّ مكان، وكانت سحب دخان اللفائف المنبعثة من على متن مراكب البوسفور كثيفة كثافة الدخان المنبعث من مداخنها؛ نفث التجّار والزبائن الدخان وهم يعقدون صفقاتهم، ونفث موظفو المصارف الدخان في أوجه العملاء وهم يحصون ليراتهم، وقد فحصني عام ١٩٧٩م طبيب يمسك بإحدى يديه لفافة، ويفحص بيده الأخرى غُدّتَيّ المتورّمتين، وكانت صديقاتي الممرّضات في أيوب يدخّنّ في أماكن عملهنّ؛ بالفعل كان التدخين جزءًا لا مفرّ منه

مـن الحياة التركيّة؛ يغمرك برائحته في سـيّارات الأجرة، وداخل المتاجر، وفـي المطـارات، ومكاتب البريد، والحوافـل، والمطاعم، أمّا أكثر مدخّن قابلتُه إثارةً للدهشة، فهو أمين مكتبة يُتبِع اللفافةَ الأخرى بمنتهى السهولة أثناء قيامه بفهرسة كتب نادرة!

ربّمـا كانت الشـوارع متهالكة، لكنّهـا بدت مفعمة بالحيـاة والبهجة؛ وقتئـذٍ لـم تكـن الأكيـاس والزجاجـات البلاسـتيكيّة قد ظهـرت، حينما كانت كلّ سـلعة تُشـترى تُلفّ بإحكام في ورق الصُّحُف أو ورق تغليف أنيـق التصميـم، وتُربـط بخيـط بحيـث تبـدو كالهديّـة حتى المشـتريات مـن الصيدليّـات، ولـو كانـت عُبـوّة أسـبرين صغيـرة، كانـت تُلـفّ فـي ورق لضمان سـتر محتواها، وكانت مئـات القِطط في كلّ مكان قِططًا هزيلـة، أو قـذرة، أو عرجـاء، أو عـوراء، أو عاجزة عن اصطيـاد الفئران، أو ذات آذان مشرشـرة، أو أنـوف مدمّمة، أو ذيـول معقوفة، أو فراء ملبّد، وبيـن حيـن وآخر تدخل قطّـة أنقريّة رائعة الجمال من بـاب أحد المتاجر بخُيَـلاء سـلطان فـي موكبـه، وكثيـرًا مـا كان المـرء يشـعر فـي المطاعم أو المتاجر بفراء القِطط يتمسّح في كاحليه.

سـاد الطابــع الريفيّ في المدن خارج إسـطنبول، فـي زيارتي الأولى لسـيواس كان الطريـق المـؤدّي للفنـدق وعـرًا، وكانـت الأبقـار ترعـى في هدوء حول مدرسـة جوك في البلدة؛ في تلك الأيّام كانت عربات جرّ الخيل تفوق السـيّارات عددًا في شـوارع الأناضول، كانت سنوات الظلام واضحـة الأثر على السـائحين أيضًـا؛ ورغم محاولات الأتـراك الجاهدة للظهور بمظهر جيّد، تعذّر غالبًا إخفاء مُلاءات الأسـرّة المبقّعة والمرتوقة بعنايـة، وأكوام التراب في قصر طوب قابي، وأسـراب البعوض في فنادق مدينـة لالالـي، أو مِشـنّ يغـرق الغرفـة كلّهـا حتـى المرحـاض بالطبـع؛ لا عجب أن احتوت أرضيّات الغرف على بواليـع كبيرة، وخفّ بلاستيكيّ جانب الفراش.

عندما كنت أعود لوطني، لم أقرأ قطّ مقالات رائعة في الصحف أو المجلّات عن السفر إلى تركيا، ولم يكن هناك سوى كتيّبين سياحيّين مطبوعين فقط عن تركيا؛ كنت أقف في أيّ مطار أو محطّة حوافل جانب حقائب أمتعتي الأنيقة المتشابهة، بينما كان الأتراك يجرّون صُرَرًا، وغرائر، وصناديق المقوَّى مربوطة بخيط القِنَّب، وحقائب صوفيّة، وُوضعت فوق طاولات المطاعم أوعية بلاستيكيّة زرقاء مليئة بشرائح الخبز، وأباريق من الألمونيوم مليئة بمياه الشرب، ورغم استغراق وقت طويل مضنٍ في تغيير العُملات، كان السائح يتجنّب تغيير مبلغ كبير في المرّة الواحدة؛ لأنّ متوسّط التضخّم كان يشهد تغيّرات كبيرة بين يوم وآخر -أثّر ذلك باستمرار على سعر الصرف-، وباتت جولات الحوافل عبر سهول الأناضول معاناة لا تطاق بسبب دُخان اللفائف، وافتقار الحوافل إلى مكيّف.

اجتازت تركيا مرحلة الأحكام العرفيّة وسنوات الأزمات، وكانت تلك هي المرّة الأخيرة يخيّم فيها الظلام والبرد على تركيا؛ لأنّ المجتمع منذ ذلك الحين بدأ ينفتح على مستقبل أكثر إشراقًا، رغم الاضطرابات السياسيّة، ظللت أعود إلى تركيا لاقتناعي منذ أولى نُزَهي عبر جسر البوسفور -حدّثتكِ عنها يا سيّدة ماري- بأنّ هذا البلد مقدّر له أن يحتلّ مكانة مرموقة؛ صيغ دستور جديد عام ١٩٨٢م، وافتتح مشروع جنوب شرق الأناضول، وعادت حبوب القهوة مجدّدًا عام ١٩٨١م، وإن كان ذلك للسيّاح فقط؛ أُطلق على هذا العام اسم ''عام أتاتورك'' -إذ صادف الذكرى المئويّة لميلاده-، ونقشت المدارس والحدائق المفتتحة في ذلك العام جانب لافتاتها عبارة: ''مئة عام'' بكلّ اعتزاز؛ لم يعد هناك سبيل للقهقرى؛ فأخذ المجتمع التركيّ ينفتح على المستقبل، وينطلق، كطائرة من المَدْرَج نحو أفق جديد.

بدأت تظهر بواكير المستقبل المشرق عام ١٩٨٥م؛ إذ انفتحت تركيا على العالم من خلال التجارة والسياحة؛ كان الأتراك عازمين على محو الذكرى السيئة لهذه السنوات المظلمة، فانطلقت خيل السباق بسرعة مذهلة، وأنا أُعُدّ العقد الممتدّ من عام ١٩٨٥م إلى عام ١٩٩٥م سنوات الصحوة؛ فعقب صياغة الدستور عام ١٩٨٢م ظهرت على الساحة قوّة سياسيّة يقودها تورجوت أوزال بحزبه الجديد "الوطن الأمّ"؛ فتح هذا الزعيم الإصلاحيّ الاقتصاد التركيّ على التجارة الحرّة، ووضع حدًّا للاعتماد الكبير على المساعدات الخارجيّة، وأطلق العِنان للطاقة الحبيسة لجيل شابّ طموح من روّاد الأعمال، وتزامنت رؤيته مع اندلاع ثورة الحاسوب؛ فبدأت التقنية تجتاح القطاعات كلّها، وافتُتحت المصانع في أرجاء تركيا جميعًا، وزادت الصوادر لا سيّما المنسوجات والسِّلَع الغذائيّة، كانت خُطّة تورجوت أوزال تشكّل ثورة لتركيا المعتمدِة قبل ظهوره على القمح والبندق فقط بوصفها صوادر رئيسة، واستيقظت تركيا بين عشية وضحاها على جينز أزرق ضيّق غدت تشتهر بتصديره لأسواق العالم، وكان طرازه ناجمًا عن نموّها السريع وعن تغيّر حلَّ عقب سنوات الظلام؛ إذ واصل الأتراك كفاحهم للارتقاء؛ فأصبحت عقولهم تجاريّة في المقام الأوّل، وأثبتوا لأنفسهم وللعالم أنّ النفط أو المعادن أو الألماس ليست أكثر مواردهم الطبيعيّة ثراء، بل العمل الجادّ والإصرار والجرأة؛ وهكذا وُلد النَّمِر التركيّ.

اليوم يرى السائحون تركيا واعدة راقية، لكنّ الحال لم تكن دائمًا كذلك؛ عاصرتُ افتتاح سوق الأوراق المالية التركيّ، واندماج تركيا في أسواق العالم، وخصخصة الصناعة، ولاحظت في دقائق الحياة اليوميّة ميلاد جمعيّات ومؤسّسات مدنيّة وإنشاء وسائل إعلام وقنوات فضائيّة ومحطّات تلفازيّة خاصّة تتمتّع بحريّة الإعلام؛ غُمِرت المتاجر بالسلع المستوردة والخدمات حتى الحاسوب؛ أتذكّر أنّني كنت أسير

في ضاحية تشكيرجا بمدينة بورصة ورأيت لافتة تعلن عن صفوف لدراسة حاسوب المعرفة، ولم أعرف ماذا يكون ذلك، لكنّني عرفت فيما بعد أنّ هذا هو الوصف التركيّ لجهاز الحاسوب؛ الأهمّ من ذلك أنّ تركيا بدأت تتودّد لأوربّا أوّل مرّة؛ فتقدّم أوزال، حينما كان رئيسًا للوزراء -في لفتة مفاجئة خياليّة كانت الأولى من نوعها- بطلب لحصول تركيا على عضويّة المفوضيّة الأوربيّة عام ١٩٨٧م.

في رأيي كان أكبر تغيير حدث في تلك الفترة هو سرعة تشييد مشاريع بناء هزت البلاد كالزلزال؛ يمكن القول: "إنّ تركيا بنَتْ نفسها من العدم بين عشية وضحاها، بكلّ ما تحمله كلمة البناء من معنى"، وكما فعل السلاطين السلاجقة من قبل، أعاد قادة تركيا ورجال أعمالها بناء البنية التحتيّة للبلاد بأسرها؛ فأُصلحت الطُّرق، وبُنيت المطارات، وحُسّنت محطّات الطاقة الكهربيّة، وحمدًا لله؛ إذ أُعيد بناء المطار المخيف الذي كان يخدُم عاصمة البلاد في أنقرة، ولم يكن في إسطنبول سوى فندقين فقط من طراز خمسة نجوم عام ١٩٨٧م، واليوم يزيد عدد الفنادق عن عشرين فندقًا جميعها محجوزة بالكامل، وباتت شواطئ بحر إيجة والبحر المتوسّط -وكانت خاوية تمامًا عقب الحرب العالميّة الثانية- تحمل لافتة "الكراسي كلها محجوزة"، وطبّقت البلاد سياسة مدروسة لتوزيع السُّلطات؛ فصارت مُدُن، مثل: بورصة وقيصري وأضنة في الصدارة تنافس أختيها الكبيرتين أنقرة وإسطنبول، وفي عام ١٩٩٠م اكتمل بناء سدّ أتاتورك المحور المركزيّ لمشروع شمال شرق الأناضول المحتوي على اثنين وعشرين سدًّا وتسع عشرة محطّة لتوليد الطاقة الكهربائيّة المائيّة؛ وبدأ المشروع يوفّر مقادير ضخمة من مياه الريّ والطاقة الكهربيّة للمناطق القاحلة في جنوب شرق تركيا؛ فزاد من إنتاج الماء وهو مورد آخر من الموارد الطبيعيّة التركيّة؛ فمشروع شمال شرق الأناضول من أضخم مشاريع التنمية في العالم، وقد وضع تركيا على خريطة العالم؛

ليس لأنّه مشروع مبتكر فقط، بل أيضًا لما أثاره من جدل؛ إذ غمر مواقع تاريخيّة، وحوّل المسارات المائيّة في المناطق الواقعة على مجرى النهر.

خضعت إسطنبول لعمليّة تجميل هائلة خلال تلك الفترة؛ إذ نُقلت مدابغ الجلود خارج أسوار المدينة في يديكولي بين عامي ١٩٨٥م و١٩٩١م، ومن حسن الحظّ أنّ الشخص القادم من المطار لم يعد مضطرًّا لتحمّل رائحة كريهة تنبعث من تلك المدابغ وتترك انطباعًا مبدئيًّا سيّئًا عن إسطنبول، وأعلنت منظّمة اليونسكو عام ١٩٨٥م أنّ أسوار إسطنبول البيزنطيّة ضمن المواقع التراثيّة في العالم؛ أدّى ذلك إلى تنفيذ خِطّة جادّة لصيانة المواقع الأثريّة، وإنشاء الحدائق، وهدم كثير من المباني القديمة المجاورة، وبدءًا من عام ١٩٩٣م تقريبًا جرت تنقية المياه الراكدة في القرن الذهبيّ، وتوسيع الطرق الساحليّة الضيّقة المطلّة على البوسفور، لكن لسوء الحظّ نُقلت أيضًا الطاولات اللطيفة لمطاعم المأكولات البحريّة المتراصّة على جانبي الأرصفة بالجهة المقابلة من الطريق، وهذا طبع الحياة؛ فهي لم تصبح مشرقة ورديّة بلا منغّصات؛ فارتفعت الأسعار، وزاد متوسّط التضخّم حتى تجاوز حاجز العشرة، وارتفع متوسّط البِطالة، وظلّ فقراء الريف يتدفّقون على المدن، فأسفر ذلك عن اتّساع الفجوة الاجتماعيّة بين أسلوب الحياة الإسلاميّ المتحفّظ والأسلوب النُّخبيّ العِلمانيّ المتأثّر بالغرب.

شهد صيف عام ١٩٨٩م نشوب مشكلات تتعلّق بلاجئين بلغاريّين، وبدء حرب كرديّة؛ واستمرّت الهجمات على الشركات التركيّة في باريس، فوقع تفجير مطار أورلي عام ١٩٩٣م مسفرًا عن مصرع ثمانية أشخاص، وفي أغسطس ١٩٩٠م غزت العراق الكويت؛ فنشبت أولى الحروب العراقيّة الأمريكيّة، وفي عام ١٩٩٤م أدّت أزمة ماليّة مصحوبة بكساد وتراجع اقتصاديّ إلى هبوط قيمة الليرة إلى النصف على مدى عدّة أشهر، فساءت أحوال البلاد، وظلّ سعر صرف السوق السوداء أعلى

بنحو ٣٠٪ عن أسعار صرف المصارف طوال عام ١٩٨٨م، لكنّ تركيا ظلّت تكافح على طريق التقدّم في مجالات أخرى خلاف مجالي الصوادر والبناء، على سبيل المثال فإنّ الربّاع نعيم سليمان أوغلو -ذا الوزن الخفيف، الملقّب باسم: "هرقل الصغير"- أسر قلوب الأتراك ورفع رؤوسهم، حينما أحرز القلادة الذهبيّة في دورات الألعاب الأوليمبيّة أعوام ١٩٨٨م، و١٩٩٢م، و١٩٩٦م؛ إذ أظهر أنّ رجلًا صغير الحجم -مثّل تركيا بلاده- يستطيع أن يحقّق فوزًا كبيرًا في مجالات الرياضة الدوليّة، وعلى الصعيد السياسيّ أيضًا أرسلت تركيا رسائل مهمّة إلى العالم؛ فرشّحت امرأة، هي تانسو تشيلر لتولّي منصب رئيس الوزراء من عام ١٩٩٣م إلى عام ١٩٩٦م؛ فعُدّ ذلك إنجازًا في مجال المساواة بين الجنسين سبقت به تركيا أيّ بلد غربيّ آخر بمراحل، وبدأت الحكومة التركيّة تقيم المعارض الثقافيّة في الخارج، وهي طريقة ذكيّة لجذب أنظار مستهلكي الثقافة الأجنبيّة؛ أذكر أنّني حضرت بكلّ فخر حفل افتتاح المعرض الضخم: "عصر السلطان سليمان العظيم" المقام في المتحف الوطنيّ للفنون بواشنطن في يناير/كانون الثاني عام ١٩٨٧م، بحضور شخصيّات عالمية مرموقة في المجالين السياسيّ والثقافيّ.

شهد بلدي أمريكا التغيّرات السياسيّة والاقتصاديّة والماديّة الهائلة نفسها خلال الثمانينيات، وكان وراءها بزوغ فجر عصر الحاسوب، كلّما فكّرت كيف تغيّرت حياتنا بفضل "حاسب المعرفة"، بدت لي التغيّرات السريعة الطارئة على تركيا أكثر إذهالًا؛ فبعد أن أيقظ أوزال تركيا في الثمانينيّات، بدا أنّ كلّ شيء متعلّق بالنظام السابق رُمِي في أعمق هوَّة؛ في تلك الفترة أعجبني التقدّم المتحقّق، وفي الوقت ذاته بدأت أشعر بالحنين للماضي؛ إذ أصبح كلّ شخص يرغب في العيش في شِقق بالبنايات الخرسانيّة أو في مبانٍ مقامة في الضواحي بدلًا من بيوت خشبيّة تحوّلت إلى فنادق سياحيّة، ولم يعد أحد يرغب في التسوّق في السوق المغطّاة،

بـل في السـوق المركزيّـة، ولم يعد أحـد يفخر بارتداء الأزيـاء والجواهر التقليديّة، وحلّت الحقائب البلاستيكيّة محلّ الأخراج المنسوجة يدويًّا.

تركـت هـذه التغيّـرات آثارهـا على أمثالـي من السـائحين الأجانب؛ فقد سعدت لرؤية مستجدّات كثيرة؛ فسيّارات الأجرة لها عدّادات جديدة، وَضعت حدًّا للمسـاومة والجدال والاسـتغلال، ولم أعد مضطرّة للإقامة في فنادق متهالكة، والمراحيض والمِشـنّات أصبحت تعمل، والمواطنون غدوا قادرين على الانتقال بقطار الأنفاق في أنقرة وإسطنبول بكفاءة عالية وتكلفـة معقولة، وكنت أتحرّق شـوقًا لاكتشـاف الموسـيقى الكرديّة عام ١٩٩١م، حينما رُفـع الحظر عن بيـع أشرطة تسجيل تحوي هذه الموسيقى المميـزة، وظلّـت لفائف التبـغ والقدّاحات والفيتامينـات الأمريكيّة هديّة مفضّلة تقدِّمُها لأيّ تركيّ؛ لأنّها كانت شحيحة آنذاك في تركيا، وظلّت أوّل قاعة تابعة للخطوط الجويّة التركيّة في مطار نيويورك بأمريكا -المخصّصة لتسليم الركاب أمتعتهم- تشبه محطّة حوافل في قلب تركيا؛ صاخبة تعجّ بمسافرين يجرّون أجهزة ميكروويف في صناديق المقوَّى، وغرائر ملفوفة بشـرائط، ولافتـة دائمـة في القاعـة تحمل اسـم الخطوط الجويّـة التركيّة حتـى الآن، بل أدّت هـذه المهمّة قطعةٌ من الورق المقـوَّى، مكتوبة بخطّ اليد بقلم أسـود ثخين خطُّه، معلّقة بخيطين فوق مكتب تسـجيل الأمتعة، ولم توفّر الخطوط الجويّة التركيّة رحلات مباشـرة من الولايات المتّحدة إلى إسطنبول أو أنقرة، بل يجب الهبوط أولًا في مدينة بروكسل.

تغيّـر أيضًا شـكل الشـوارع؛ فمنـذ عـام ١٩٨٩م تقريبًـا خاصّة عقب سـقوط الشـيوعيّة في روسـيا عام ١٩٩١م امتلأت منطقة لالالي بمواطني دول أوربّا الشـرقيّة، لم تظهر علامات إرشـاديّة في الشوارع، لكنّني بدأت أرى أوّل مـرّة مَـن يقتنـون الكلاب -كلاب البـودل الفرنسـية!- بوصفها حيوانات مدلّلة، وقلّ عدد القِطط الضالّة، وأصبح مطعم إسكندر للكباب -مكانـي المفضّـل في قيصري- مكيّف الهواء مزوّدًا بسـتائر ورديّة رائعة،

أمّـا بلـدات، مثل: نيدي وأفيـون -كنت وجدتهما فـي رحلتي الأولى عام ١٩٧٨م ضائعتين وسط السهول المغبّرة السرمديّة-، فقد بدتا الآن كأنهما عاصمـة عمرانيّـة مكتظّة بالسـكّان، وشُـيّدت مشـاريـع معماريّـة عملاقة فـي جميـع أنحاء تركيا، غيـر أنّ عددًا لا يحصى مـن المواقـع لم يكتمل بناؤه وبات مهجورًا، وظلّت المتاحف الكبرى مغلقة للتحسينات، ورفعت لافتـات تعلـن إعـادة افتتاحها في تاريخ أقدم بسـنتين مـن تاريخ وقوفك أمام أبوابها!

لعـلّ أعظـم تغيير فـي رأيي هو مـا رأيته فـي مدينة أنطاليـا المزدهرة ازدهارًا هائلًا عقب ظهور سلسلة من فنادق النجوم الخمسة الفخمة، مثل: "فالاز" و"شـيراتون فويدجار" عام ١٩٩١م، حينما زرت تركيا أوّل مرّة عـام ١٩٧٨م كانـت أنطاليا بلـدة صاخبة بها ميناء تاريخـيّ داخليّ خلّاب ملـيء بالآثار السـلجوقيّة ومراكـب الصيد الراسـية عند واجهـات بحريّة قديمـة؛ أقمـت في نُزُل صغير على طريق لارا شـرق البلـدة، كان متهالكًا جدًّا، لكنّه ساحر بفضل موقعه الرائـع على الساحل، أهمّ ما يلفت الانتباه لهذا النُّزُل المتواضـع شجرة دُلْب ضخمة، قد يصل عمرها إلى ثلاث مئة عام في حديقته المطلّة على الجُرْف؛ كان شـكل الشـجرة مميّزًا بأغصانها الطويلـة الممتدّة أفقيًّا بطول حافة الجُرْف الصخريّ، كما لو كانت تحاول توفيـر أقصـى قدر مـن الحمايـة؛ اعتدت تنـاول وجباتي تحـت فيء هذه الأغصان الطويلة وأوراقها العريضة، وتنسّمت النسمات المنعشة، وقرأت، وتمشّـيت، وتأمّلت المنظر الرائـع لميناء أنطاليا؛ قدّمت لي هذه الشـجرة ملاذًا آمنًا يفيض سلامًا ومحبّة وسكينة نادرًا ما شعَرت بها.

بعد مرور سنوات، وتحديدًا في عام ١٩٩١م، قرّرت أن أعود للإقامة فـي ذلـك المـكان المتواضـع لأنعـم ثانية بتلك السـكينة تحت شـجرته، في محاولة للهرب من تلك الفنادق الحديثة المفتقرة إلى الحميميّة؛ جفَل قلبي حين وصلت إلى الطريق المؤدّي إليه، ورأيت أنّ الأرض قد حُفرت،

وأحيطت بسياج من الأسلاك الشائكة؛ كانت اللافتة المثبّتة أعلى السياج تقول: ''موقع بناء؛ ممنوع الدخول، أعمال هدم خطرة''، شجرتي الحبيبة، هل اقتلعتها الجرّافة وألقتها في البحر؟ انتابني حزن شديد ذلك اليوم، وسألت نفسي: هل تدرك تركيا أنّ التقدّم يحمل في طيّاته مسؤوليّات محدّدة تجاه التراث والتقاليد من دونها يصبح التقدّم وعدًا أجوف لا أساس له؟

بدءًا من عام ١٩٩٥م تقريبًا، وفور انطلاق خيل سباق أوزال، بدأت تقطع المضمار، كما لو أنّ شيئًا لا يقف في طريقها، وطرأ تغيّر مجتمعيّ آخر على تركيا استمرّ نحو خمس سنوات؛ إذ برز اتّجاه معيّن، وبدأت الأمور تتصاعد حتى باتت معها القهقرى مستحيلة؛ فقد فتح أوزال الباب على مصراعيه أمام الاستهلاك؛ فهُرع الأتراك إليه برغبتهم العارمة في التقدّم والتغيير، والتزمت تركيا مسارًا محدّدًا نحو العصريّة؛ فانطلقت لتصبح أكبر وأفضل من أيّة دولة أوربّيّة أو من أمريكا، ونجحت على عدّة أصعدة، وفي غضون خمس سنوات، كان المارد النائم -المستيقظ في العقد السابق- قد اتّخذ مكانه على الساحة العالميّة، وصاح: ''أخلوا لي الطريق، فأنا قادم!''؛ فبدأت تركيا تشقّ طريقها صبيّة تكبر، وتتّجه نحو البلوغ، وكلّ ذلك من خلال اندماج سريع سلِس مع الثقافة الاستهلاكيّة العالميّة، تغيّرت الحياة اليوميّة تغيرًا ملحوظًا حتى أثناء فترات قصيرة كانت تفصل بين زياراتي، ولو أنّني زرت تركيا بعد غياب عشرين عامًا، لا مرّة كلّ عام، فلم أكن لأصدّق ما رأته عيناي؛ تزامنت تلك الفترة من التقدّم السريع أيضًا مع ظهور شبكة المعلومات الدوليّة بوصفها قوّة محرّكة عالميّة متفجّرة، وشهد هذا العصر المزيد والمزيد من الاستهلاك الملحوظ تدفعه نُخبة جديدة ظهرت بفضل التعليم والكفاءة المِهْنيّة، كما فعلت الإنكشاريّة في عهد الدولة العثمانيّة.

كان عام ١٩٩٦م عامًا حافلًا بالتغيير، وهو عام عُقد فيه مؤتمر الأمم

المتّحدة للمستوطنات البشريّة -الموئل الثاني- بمدينة إسطنبول؛ فلإظهار إسطنبول مشاركًا فاعلًا في الساحة الثقافيّة العالميّة، خضعت المدينة لعمليّة تزيين شاملة، وزُوّدت الشوارع بالعلامات الإرشاديّة، وحُسّنت وسائل المواصلات العامّة، وخفيت الكلاب والقِطط الضالّة الكثيرة من الشوارع بين عشيةٍ وضحاها، وخفيت الإشارات الأهليّة للطريق في الأحياء، ووُضعت العلامات الإرشاديّة في مكانها الصحيح، لكن فقدت إسطنبول الجديدة النظيفة من عدّة أوجه كثيرًا من غموض خَلَب لبّ بيير لوتي، وبحلول عام ١٩٩٦م زاد عدد سكّانها البالغ أربعة ملايين نسمة لدى وصولي عام ١٩٧٨م ليتجاوز اثني عشر مليون نسمة؛ وبات ازدحام المدينة ملحوظًا.

عددتُ من سمات هذه الفترة ظهور ثروة جديدة على كثير من الأصعدة، خاصّة في ازدهار حركة تشييد المنازل والمراكز التجاريّة الحضريّة؛ فقد أُنشئت في منطقة لَوانت في إسطنبول مجمّعات عمرانيّة فخمة مغلقة ببوّابات -يطلق عليها اسم (موقع)، ينطقونها بالطريقة الفرنسيّة- توفّر بيئة معيشة كاملة تضمّ منازل، وطرقًا، وحدائق، ومروجًا خاصّة، ودُور سينما، وساح تسوّق، ونوادي صحّيّة، وملاعب لكرة المِضرب، وحمّامات سباحة، وشهدت تركيا وقتئذٍ حركة نموّ سريعة في تشييد مراكز التسوق التجاريّة المخطّطة لتكون بمنزلة منتديات اجتماعيّة؛ بدأ ظهور هذه المراكز التجاريّة في كلّ مكان في نهاية التسعينيّات، بدءًا من مركز "جاليريا" المشيّد عام ١٩٨٨م، و"أكميركز" و"كانيون" في إسطنبول، و"مترو" و"أتاكولا" في أنقرة، ومركز "كولا سيتي" المكوّن من اثنين وأربعين دورًا أنشئ في قونيا عام ٢٠٠٦م، وانقلبت أجواء الأسواق الشعبيّة التي يغلب عليها الطابع الذكوريّ إلى أجواء مراكز التسوّق الأكثر ميلًا للطابع الأنثويّ، ورأيت أوّل مرّة سيّدات يعملن بائعات، لم تكن هناك موازنة بين الأرضيّات الرخاميّة

اللامعة لهذه المراكز والشوارع الموحلة للأسواق القديمة في المدينة، ويُضطرّ المرء للذهاب إلى تلك المراكز بالسيّارة لا سيرًا على الأقدام؛ وهي علامة أخرى على السمة الاستهلاكيّة المتزايدة؛ تضمّنت مراكز التسوق ساحًا لتناول الطعام حافلة بسلاسل المطاعم الغربيّة، مع بقاء بعض أكواخ الكباب، حمدًا لله! هُرع تجّار التجزئة الأجانب لشغل متاجر هذه المراكز، بدءًا من مقهى "ستاربُك" إلى متجر "هارفي نيكلز".

شهدت هذه الفترة، بالإضافة إلى ظاهرة مراكز التسوّق، تحوّلًا كاملًا لمتجر عَمَّ البدَّال، من شكل المتجر العاديّ إلى شكل مركز التسوّق، مثل: "إسمار"، وأخيرًا إلى شكل مركز التسوق المتكامل، مثل: "ميجروس" و"كارفور"، واستمرّت موجة تشييد الفنادق أيضًا، مع التركيز على الفخامة، فكلّما كانت التجهيزات أكثر ترفًا كان الفندق أفضل، وبصفة عامّة أعادت موجة ازدهار حركة البناء رسم شبكة المناطق الحضريّة، وتفكَّكَ الرابطُ القويّ بين العناصر التقليديّة الثلاثة للمدينة العثمانيّة -الحيّ، السوق، المسجد المحليّ- وأعيد تشكيلها على نحو مختلف؛ إذ لم يعد الأطفال الصغار يترعرعون في حيّ السلطان أحمد في إسطنبول المتحوّل إلى منطقة سياحيّة حافلة بالبيوت العثمانيّة.

راقبتُ هذه التغيّرات أيضًا على صعيد الاتّصالات والطراز والطعام وقطع أوقات الفراغ بأشكال متباينة، لكنّني أعتقد أنّ النزعة الاستهلاكيّة المحمومة هي السمة الغالبة لتلك الفترة؛ شعر كلّ شخص بحتميّة اقتناء هاتف نقّال وسيّارة وشراء احتياجاته من مركز التسوّق المركزيّ؛ لطالما كانت إسطنبول بوّابة للتجارة، وفي تلك الفترة طرق الأوربّيّون والغربيّون هذه البوّابة، لا ليروّجوا لبضاعتهم فقط، بل أيضًا لأسلوب معيشتهم في مجتمع متعطّش لذلك، ورغم التحمّس للتقدّم والاستهلاك، ظلّ هناك تناقض شاسع بين الثروة الهائلة والأموال المتدفّقة بظهور الأغنياء الجدد

في إسطنبول من جهة، والفقر المدقع البادي في المناطق الريفيّة عادة في الشرق من جهة أخرى.

أقبل الأتراك على الاستهلاك، لكنّهم أقبلوا على الإنتاج أيضًا؛ فخلال هذه الفترة فاجأت تركيا العالم بحُنْكتها وإنجازاتها التقنيّة في الداخل والخارج، وصارت مشاركًا بارزًا على الساحة بما حقّقته في مجال الاتّصالات، وحينما أُفتُتحت القاعة (١) الجديدة المجهّزة بأحدث التجهيزات في مطار ''جون إف كينيدي'' في نيويورك عام ١٩٨٨م، ارتقت الخطوط الجويّة التركيّة لتصبح من الخطوط الجويّة الدوليّة الخمس المستخدِمة هذه القاعة، مثل: شركتي الطيران المرموقتين ''إيرفرانس'' و''لوفتهانزا''، وصارت رحلات الخطوط الجويّة التركيّة من الولايات المتّحدة إلى إسطنبول رحلات مباشرة تقلع كاملة العدد، واستُبدلت قاعة تسجيل الأمتعة -الشبيهة بمحطّة حوافل- بخدمة سريعة سلسة راقية، وأضحى الأتراك يحملون أمتعة أنيقة ذات علامات تجاريّة شهيرة، ومن مظاهر التقدّم التقنيّ المبهر المميّز لهذه الفترة في تركيا، أنّني استخدمت أوّل مرّة في حياتي مَكِنة صرف آليّ لأسحب نقودًا في بلدة أفيون الزراعيّة المتربة، لا في شارع ''وول ستريت'' في مانهاتن، واستخدمت أوّل مرّة في حياتي نظام ترشيد الطاقة عن طريق تشغيل الإضاءة بالبطاقات المُمغطسة في فندق بمدينة قيصري، لا في لاس فيجاس أو باريس، واستمتعت بالهواء البارد المنعش المنبعث من وحدات تكييف حائطيّة ذات كفاءة عالية في أكساراي، وافتُتح مشروع قطار الأنفاق بين تكسيم ولونت عام ١٩٩٩م، وقد جلست في سيّارتي أوّل مرّة أنتظر تغيّر الإشارة الحمراء وأنا أتابع العدّ التنازليّ بالثواني على شاشة عدّاد رقميّ، لم يكن هذا في نيويورك، بل في بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر الأسود، وهدر قطار ''الطلقة الفضيّة'' السريع في أولى

رحلاتـه من سـيركجي إلـى أمين أنو عبـر طريق ''ديفان يولـو'' التاريخيّ فـي إسـطنبول، كان قـد شـهد مـن قبل مسـيرات الإنكشـاريّة فـي زمنكِ يا سيّدة ماري.

تغيّـر شـكل الشـوارع تغيّـرًا سـريعًا أيضًـا، وبـدأتُ أرى عربـات يد تبيـع الأطعمـة الغربية، مثل: الـذرة الحلوة المسـلوقة والبطاطس الحارّة والمنفـوش (الفشـار)، فضـلًا عن مظاهـر التفاخر بالكلاب في سلاسـلها والسـيارات الفخمة أمام الأكواخ القديمة، وحلّ الغاز الطبيعيّ محلّ فحم حجريّ بطيء الاشـتعال منح إسـطنبول رائحة مميّزة خلال فصل الشتاء، وانتشرت مقاهي شبكة المعلومات الدوليّة في كلّ مكان بعد عام ١٩٩٥م، وأزهرت أسـطح المنازل بأطباق اسـتقبال القنوات الفضائيّة بسرعة تعادل سرعة نموّ نبات إبرة الراعي في صفائح زيت الزيتون المنتشرة أمام أبواب المنـازل، وبـدأ ظهور الدرّاجات عام ١٩٩٦م مـع ظهور عربات الأطفال -لم يكن لها وجود من قبل في تركيا-؛ إذ شاعت ثقافة حمل المرأة طفلها قريبًا منها، سـواءٌ علـى ذراعيها أو فوق وركيها، ورُمّمت منطقة السـلطان أحمـد عام ١٩٩٧م، مـع إقامة حديقة جديـدة وتنظيف الخرائب القديمة، وأقيم سياج خاصّ حول حمّام السباحة العميق الحالم في مدرسة كاراتاي في قونيا لحماية السائحين الحمقى، وأقيم دور جديد في السوق المغطّى عام ١٩٨٨م.

لـم يقتصر الأمر على تدفّق سـلـع وأسـاليب اسـتهلاكيّة جديدة على تركيـا، بـل انعكسـت أيضًـا العولمة فـي الصور والأسـماء ونجـوم الفنّ والأطعمـة وأسـاليب الحياة بفضل وسـائل الإعلام والمحطّـات التلفازيّة الفضائيّة، وبدأ الشـباب الأتراك يعتمدون المظهر العالميّ؛ الجينز ونصف الكُـمّ والحذاء الرياضيّ وقميص البيسـبول (بلا كُمّ)، ورسـومات الوشـم علـى الجلد، واستشـرت ظاهرة البدانـة بين الأطفـال، وتألّقت المجلّات

اللامعة في أكواخ بيع الصُّحُف؛ فظهرت النُّسَخ التركيّة من مجلّتي "كوزموبوليتان" و"ماري كلير"، وتنافست مجلّات التزيين ومجلات الطراز ذات الورق المصقول على جذب الاهتمام، وصار مصمّمو الأزياء الأتراك يتبخترون على ممشى عروض الأزياء الدوليّة، بدءًا من رفعت أوزبك وأتيل كوتوغلو، قدّما في منتصف التسعينيّات مجموعة أزياء مبتكرة تتّسم بطابعها الشرقيّ الخياليّ؛ وقتئذٍ لاحظت أنّ فرع متجر "كي مارت" القريب منّي في أمريكا يستورد من تركيا الجينز الأزرق وقمصان بولو.

نقل الأتراك أساليب الحياة الاستهلاكيّة الغربيّة المترفة بطريقتهم التركيّة، فبدأت المرأة تهتمّ بصحّتها وجمالها، ليس فقط بمتابعة المقالات المنشورة في مجلّات الطراز الراقية، بل أيضًا من خلال متابعة المقالات المنشورة في الصحافة المحليّة والإعلان، وبالاستعانة بمنتجات التجميل العالميّة في السوق التركيّة، وممّا لا يُصدّق أنّ في هذا البلد المشهور بتدخين النارجيلة والمرتبط اسمه بتدخين التبغ، حظر الأتراك التدخين في الأماكن العامّة قبل أوربّا بوقت طويل، وبعد الولايات المتّحدة مباشرة، وظهرت المقاهي العصريّة ومطاعم الوجبات السريعة، وشاهدت منتجات غذائيّة جديدة في تركيا قبل أن أشاهدها في نيويورك، وصارت الهواتف النقّالة في يد الناس جميعًا، وأصبحت أطعمة، مثل: كعك الشيكولاتة، ومكعّبات السُّكّر، والقهوة، من الرموز المألوفة في الحياة اليوميّة.

لم يقنع الأتراك بجلب السلع الاستهلاكيّة فقط، بل سعوا أيضًا لتوفير فرص تعليم أفضل لأبنائهم؛ فظهرت الجامعات الخاصّة في وقتٍ تدفّق فيه الأتراك بأعداد غير مسبوقة على الالتحاق بمعاهد التعليم العالي في أمريكا؛ فالحصول على شهادة أمريكيّة كان جواز مرور لتحقيق النجاح في تركيا، ومثلما بُعث الأمراء العثمانيّون في الماضي إلى المدن القرويّة ليتعلموا الحِرف على يد معلّم خاصّ، بات ورثتهم الشرعيّون المعاصرون

يُبتعثون إلى الولايات المتّحدة للالتحاق بأرقى الكليّات والحصول على أرفع الشهادات العلميّة.

لم يقتصر التغيير على إسطنبول وحدها، بل على البلاد بأسرها، لكنّه اتّخذ منحى مختلفًا في الأناضول؛ إذ تضافرت الجهود لنبذ الماضي واتّباع أساليب الحياة الغربيّة للتدليل على طابع الحداثة، وحلّت أدوات عمليّة فعّالة محلّ الأدوات المنزليّة التقليديّة، فحلّت مجموعة أواني ألمونيوم روّجت لها إعلانات الصُّحُف محلّ الأواني النحاسيّة القديمة يدويًّة الصنع، وحلّت أدوات المائدة المصنوعة من الإينوكس محلّ الملاعق الخشبيّة المنحوتة يدويًّا، وحلّ الموكيت محلّ الكِليم والسجاجيد المنسوجة يدويًّا، وحلّت الأرائك والكراسيّ المنمّقة محلّ مصاطب ''صدر البيت'' المنخفضة التي استمتعتِ كثيرًا بالجلوس عليها يا سيّدة ماري؛ أذكر أنّني في إحدى زياراتي قونيا عام ١٩٨١م كدت أتعّرض للدهس تحت عجلات مئات عربات تجرّها الخيل أمام مجمع ''صاحب عطا''، وهي منطقة مخصّصة لمحلّات الصيانة وقطع الغيار؛ لم تكن هناك سيّارة واحدة وسط مئات عربات تجرّها الخيل، لكنّني حينما عدت إلى المنطقة نفسها عام ١٩٩٥م، كانت برمّتها تخلو من أيّة عربة تجرّها الخيل.

لا شكّ أنّ التغيير يستتبع لا محالة عواقب عارضة، وقد كانت مظاهر التلوّث البصريّ على جانبي الطريق أكثر تغيّر مؤسف لاحظته في الأناضول وقتئذٍ؛ ففي السابق كان المرء يتجوّل ساعات دون أن تقع عيناه على أيّة لوحة إعلانات؛ لا شيء سوى أميال من مناطق ريفيّة نقيّة ممتدّة؛ كان الريف بالغ النقاء حتى إنّه يُشعر المرء بالانفصال عن العالم، وأنّه قادر على مدّ بصره وخياله نحو الأفق وما ورائه، أمّا الآن فلوحات الإعلانات في كلّ مكان، مليئة بمعلومات فجّة لا أهميّة لها؛ لم تكن هذه اللوحات وحدها تلوّث الريف، بل كانت هناك قُمامة أيضًا، لا سيّما تلك

الزجاجات والأكياس البلاستيكيّة غير القابلة للتحلّل؛ في السابق لم يكن للقمامة وجود قطّ على طرقات تركيا، لكنّها الآن في كلّ مكان.

رأيت تغيّرًا مؤسفًا آخر في قونيا عام ١٩٩٦م، إذ اختفت التشكيلة الزاهية لسجاجيد الصلاة المنسوجة يدويًّا السابغة لأرضيّات مسجد علاء الدين، وحلّت محلّها مِساحات ساذِجة من الموكيت الأزرق المائل للخضرة؛ تغيّر هذا المسجد الفخم، أشهر وأقدس المساجد السلجوقيّة، بمنبره المزخرف الشهير المصنوع من خشب الجوز منذ عام ١١٥٥م، وبمحرابه ذي البلاطات الفيروزيّة المزجّجة الرائعة، وسجاجيده الأصليّة البديعة، أمر السلطان علاء الدين كيقوباد بصنعها، والآن سُلب من المسجد مجده التاريخيّ بسبب تلك السجاجيد الصناعيّة، وكلّ هذا باسم التقدّم والتنمية.

في ظل تلك النزعة الاستهلاكيّة والتغيّر الطارئ على الحياة التركيّة خلال الفترة من ١٩٩٥م إلى ٢٠٠٠م، لعلّ المشهد السياسيّ الناشئ كان إرثًا خالدًا لهذه الفترة، ترك أكبر أثر على مستقبل تركيا؛ فقد شهدت هذه السنوات الخمس كفاح بلد للتكيّف مع تغيّر كان في أغلب الحالات مربكًا يصعب استيعابه؛ فقد تركت النزعة الاستهلاكيّة الغربيّة شعورًا بالإقصاء لدى قطاع كبير من المجتمع، خاصّة أولئك الذين يعيشون خارج المراكز الحضريّة، وكما هو متوقّع تحوّل كثيرون إلى شيء أكثر أمنًا وألفة وملاءمة مع نظام القيم، وتطلّعوا إلى نظام يقبل أساليب الحياة المختلفة ويحقّق الاستقرار الاقتصاديّ؛ لذا لم تكن مفاجأة أن تنتخب تركيا نجم الدين أربكان أوّل رئيس وزراء إسلاميّ في يوليو ١٩٩٦م، إيذانًا ببدء مرحلة جديدة في الحكم.

أمّا فترة النشوء الرابعة والأخيرة -عايشتُها في تركيا-، فقد بدأت منذ عام ٢٠٠٠م إلى اليوم في أعقاب حادثين مدمّرين؛ هما زلزال إزميت

عـام ١٩٩٩م وتفجيـرات الحادي عشـر من سـبتمبر/أيلول عـام ٢٠٠١م فـي نيويـورك؛ فقـد تغيّـرت تركيـا والعالـم بعـد هذيـن الحدثيـن، وقـادوا حملـة حماسـيّة أخيـرة للتحديـث رغبـت تركيـا فـي تحقيقهـا؛ تتّسـم هذه الفترة -من وجهة نظري- بتدفّق سـياحيّ هائل، وحملة مكثّفة مـن التـودّد لأوربّا، وظهور شـعور بالعـداء تجاه الثقافة الأمريكيّة بسـبب حربها الثانية على العراق، وبروز أحزاب سياسـيّة دينيّة قويّة على الساحة، وتصدّر تركيا الساحة العالميّة على الصعيدين السياسيّ والاقتصاديّ.

تغيّر المناخ السياسـيّ تغيّرًا سـريعًا، وشـهد إلغاء عقوبـة الإعدام عام ٢٠٠٢م، ورغـم انتهاء التمرّد الكرديّ عـام ١٩٩٩م بإلغاء قانون الطوارئ فـي نوفمبر/تشـرين الثاني عام ٢٠٠٢م، ظلّ من الشـائـع جـدًّا رؤية جنود يحملـون البندقيّات الرشّاشـة يقفون في مداخل الفنـادق والأماكن العامة حتـى عـام ٢٠٠٤م، عام بثَّـتْ قناة "تي آر تـي (*TRT*)" التلفازيّـة التركيّة المرّة الأولَى برنامجًا باللّغة الكرديّة،؛ ولما تسبّبت أزمة ماليّة -وقعت عام ٢٠٠١م- في هبوط سـعر العملة التركيّة وخسـارتها نصف قيمتها، طبقّت البلاد إصلاحات اقترحها صندوق النقد الدوليّ، والتزمت بتنفيذها؛ نتيجة لذلـك لم تحقّـق تركيا نموًّا هائلًا في متوسّـط الناتج المحلـيّ الإجماليّ فقـط، بـل خلّصت نفسـها أيضًـا من تضخّم شـديد أصابها خـلال معظم سنوات التسعينيّات.

واصلت تغيّرات العقد السـابق ظهورها السـريـع؛ إذ اسـتمرّت عمليّة ازدهار البناء، فشُـيّدت مشـاريـع إسـكان ضخمة على أراضٍ خارج مدن، مثل: قيصري ومالاطيا وقونيا، وشُـيّدت أبراج إداريّة في أنقرة وإسطنبول، ومراكز تسوّق تجاريّة ومتاجر متكاملة في أنحاء البلاد كلّها، وباتت الطُّرق المتقاطعـة بطـول البـلاد وعرضهـا تضارع نظيراتهـا في الـدول الأوربّيّة، وواصلت التقنية تقدّمها؛ فشـهد عام ٢٠٠١م افتتاحًا لمشـروع قطار أنفاق جديـد فـي أنقـرة ولمطار دوليّ في إسـطنبول، وفي إشـارة لتغيّـر الزمن،

أصبحت المساجد تضع لافتات كُتب عليها: ''برجاء إغلاق الهاتف النقّال''، ووُضعت في بلدة صغيرة خارج توقات شاشة رقميّة فوق المسجد لتعلن مواقيت الصلاة بحروف حمراء ساطعة.

في الأول من يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٥م أُلغِيَت من العملة التركيّة ستّة أصفار، وصدرت الليرة التركيّة الجديدة؛ وبكفاءة مذهلة استطعت أن أسحب أولى الليرات التركيّة الجديدة من مَكِنة الصرف الآليّ في الساعة العاشرة من صباح يومئذٍ، ولم أتوقّع يومها أن تُخرج لي المَكِنة العملة الجديدة، لكنّ كلّ شيء مضى بسلاسة، بل بسلاسة أكثر ممّا حدث، حينما تحوّلت أوربّا إلى اليورو.

ما من إعلان يظهر الآن دون أن يكون مصحوبًا بعنوان موقعه على شبكة المعلومات الدوليّة، علاوة على أنّ استخدام أجهزة التقاط إشارة الشبكة الهوائيّة -واي فاي- في تركيا أكثر شيوعًا وفعاليّة منها في أمريكا، ناهيك عن أنّها أكثر تقدّمًا من مثيلتها في أوربّا، علاوة على ذلك أصبحت تركيا تهتمّ بحماية البيئة، فظلّت تقيّد نموّ المناطق الحضريّة، وتنشئ حدائق جديدة ومواقف للسيّارات، وخصّصت شوارع تسوّق للمَرَرَة فقط مغلقة أمام السيّارات كما في شارع ''استقلال'' والشوارع الفرنسيّة في إسطنبول، ووزِّعت الطُّرُق المروريّة المؤدّيّة إلى مداخل المدن، ومن الشائع الآن رؤية عمال غربيّين يعيشون في إسطنبول؛ فقد أصبحت إسطنبول تستقبل نحو ثلاث مئة ألف إلى أربع مئة ألف مهاجر سنويًّا، وأصبح قطار ''الطلقة الفضيّة'' الآن مكيّف الهواء لراحة الركاب.

تواصل السوق الدوليّة نموّها، مع تصدير الأتراك نسبة ٩٠٪ من سيّاراتهم إلى أوربّا، وقد رأيت في أبريل/نيسان عام ٢٠٠٧م بعض المشروبات التركيّة تُباع في زاوية صغيرة بمتجر البقالة في شارعِي بنيويورك، وصارت لافتة الرِّحلات المغادرة في مطار إسطنبول تعلن

عن قيام رحلات جويّة إلى كلّ مكان يتصوّره المرء؛ فما أبعد هذا عن تلك اللافتة من المقوَّى المعلّقة يومًا ما فوق مكتب الخطوط الجويّة التركية في مطار نيويورك! لكنّ أكبر تغيّر شهدته تلك الفترة تمثَّل في التدفق السياحيّ الهائل على تركيا؛ إذ لم أعد أستطيع المشي في شوارع إسطنبول دون أن أقابل أجانب، وتحوّلت إسطنبول إلى روما الجديدة؛ والأتراك شعب مضياف كريم كعادته، لا يدخّر جهدًا للترحيب بالسيّاح.

وضعت تركيا منظومة مواصلات ممتازة تشمل وسائل راقية لنقل الركّاب في المدن بحوافل وقطارات وخطوط قطار بطيء ومراكب وحوافل عائمة وسيّارات أجرة وخطوط قطار أنفاق يجري تحسينها حاليًّا، وتخضع خطوط السِّكَك الحديديّة والطُّرُق العامة للتحسين؛ إذ ضمّ كثير من الطُّرُق أربع مسارات، وشُقّت طُرُق سريعة بضرائب واجبة التحصيل لتيسير الحركة فيها، وستجدين دائمًا على هذه الطُّرُق ضبّاطًا مبتسمين يتقنون عدّة لغات لضمان سلامة الروّاد، وتُعدّ نافذة تقديم المعلومات للسائحين في منطقة السلطان أحمد أعجوبة من حيث كفاءة الأداء، وتُستخدم البيوت والأَخوان العثمانيّة التاريخيّة في سافرانبولو وديار بكر وأماسيا دُورًا للضيافة، وسيجد السائح مقهى ''ستاربك'' في انتظاره بشارعي ''ديوان يولو'' و''استقلال''، في حال لم يكتفِ بكؤوس الشاي التقليديّة الصغيرة والقهوة بالحليب، والقهوة التركيّة، وتنتشر مِكان المثلّجات في الفنادق، ويستطيع السيّاح أن يرقصوا على أنغام الأغاني العالميّة الشهيرة وإيقاعات الراب التركيّ في عدد لا يحصى من ملاهي ديسكو شبابيّة افتُتحت خِصّيصى لهم.

من بين الثمار الناضجة لانفتاح تركيا نحو وُجهة ثقافيّة عالميّة زيادةُ الوعي بكيفيّة عرض تراثها القوميّ؛ فبالإضافة إلى تحسينات المتاحف التركيّة المرموقة في أنقرة وإسطنبول وأنطاليا، فُتحت سلسلة من متاحف القطاع الخاصّ، مثل: متاحف ''قادر هاس''، و''كوتش''، و''صابانجي''،

و"بيرا"، و"صدبرك هانم" في إسطنبول لاستقبال الأجانب وأتراك استيقظ اهتمامهم بهُويّتهم الثقافيّة؛ إذ ترسّخ تركيا قدميها بوصفها مشاركًا رئيسًا في الساحة الثقافيّة العالميّة بفضل هذه المتاحف، لا سيّما متحف إسطنبول للفنّ الحديث المقام عام ٢٠٠٤م، وهو أوّل متحف من نوعه في تركيا للفنّ المعاصر، غير أنّ الفنون التقليديّة حاضرة؛ فهناك خِطَط حاليّة في إسطنبول لإنشاء متحف خاصّ للسجاد المسطّح، أمّا الكتيّبات السياحيّة وكتيّبات المتاحف التي كانت من قبل عصيّة على الفهم لِما تحفل به من أخطاء لغويّة فادحة، فقد صارت الآن أنيقة مكتوبة بلغة راقية، وتتوافر الأدلة السياحيّة المسموعة الآن بمجموعة كبيرة من اللغات الأجنبيّة، وتُطبع الكتيّبات الإرشاديّة باللغات كلّها، إضافة إلى ذلك فقد بدأ الشعب التركيّ يزداد وعيه الثقافيّ، مثله مثل السائحين؛ فأصبح إصدار الكتب أكثر رقيًّا وتعقيدًا، وزُوّدت الكتب بأغلفة ملّونة مصمّمة تصميمًا فنيًّا وبورق أبيض عالي الجودة؛ وهو تحسّن ملحوظ في الأغلفة الشاحبة المضجِرة وورق الصُّحُف المستخدم في الماضي.

في السابق كانت تركيّا تصدّر عشرة آلاف كتاب تقريبًا سنويًّا، وفي عام ٢٠٠٦م أصدرت نحو ثلاثين ألف كتاب، والآن صارت متاجر بيع الكتب الراقية في كلّ مكان، بواجهات تقدّم عروضًا جذّابة للكتب المتوفّرة بها، ولما أعلنت منظمة اليونسكو عدّ تسعة مواقع في تركيا ضمن المواقع التراثيّة العالميّة، وأعقبَه اهتمام مثقّفي العالم بالاكتشافات الأثريّة؛ زاد الوعي في تركيا بوجوب الحفاظ على التراث وتقديره والاعتزاز به؛ والآن أصبح الأتراك أكثر إدراكًا أنّ ثقافتهم تتّسم بثراء هائل يستوجب الاعتزاز به وصيانته مع مراعاة العناية والحِرفيّة اللازمة.

ألاحظ تغيّرات كثيرة تعدّ مؤشرًا لي؛ إذ أصبح من الصعب العثور على خبز جيّد، وصار شراب الخثير متوفرًا في أكواب معقّمة، ولم يعد يُصنع منزليًّا ويقدّم في أباريق، وسمعت هذا العام أوّل مرّة في الشوارع

صوافر سيّارات الشرطة والإسعاف، وبات من النادر رؤية الأكواخ القديمة وبائعي اليانصيب الجائلين، وصارت العصائر معلّبة في عُلَب المقوَّى، لا في قوارير مخروطيّة صغيرة الحجم زاهية اللون، ولم يعد بمقدورك تناول رشفة ماء في أيّ مكان إلّا إذا كانت معلّبة في زجاجات بلاستيكيّة؛ إذ باتت أباريق الألمونيوم -كانت توضع فوق طاولات المطاعم- أو الكؤوس التي يقدّمها الباعة الجائلون غير صحّيّة في نظر الناس جميعًا، وأصبح الأطفال الرضّع صعاب الإرضاء، وصار الأطفال أكثر وقاحة وبدانة، وفقد سوق الأبازير أصالته، بعد أن خبا زهو تلاله الشهيرة من التوابل الملّونة، وتحوّل لبيع هدايا وتذكارات رخيصة وقمصان نصف كُم للسيّاح، أضف إلى ذلك أنّ متاجر الجواهر صارت تزحف عليه، فقد رأيت هذا العام أحد هذه المتاجر بواجهة زجاجيّة متطفّلة دون أدنى احترام لملاءمة معماريّة يتّسم به هذا الأثر التاريخيّ.

في خِضَمّ هذه التغيّرات كلّها، أدعو الله أن يظلّ التميّز المحليّ لكلّ إقليم في تركيا -بثرائه كلّه وتفرده- صامدًا أمام العولمة وقالبها العالميّ القياسيّ المانح الأماكن كلّها طابعًا موحّدًا؛ لأنّ ذلك التنوّع الإقليميّ هو أحد الموارد المهمّة في تركيا، ولا بدّ من الحفاظ على العاد المحليّة والأزياء التقليديّة والأغاني الشعبيّة واللهجات واللكنات المحليّة والأطعمة والموسيقى والنماذج الفنيّة؛ فأنا أريد قونيا مختلفة عن شانليورفا، ولا أريد أرضروم الغالب عليها الطابع الرماديّ أن تشبه أنقرة الذهبيّة، أو أن تستخفي اللهجات الإقليميّة التركيّة؛ أريد أن أسمع الموسيقى العلويّة في إلبيستان وأن آكل المثلجات المكثفة في قهرمان ماراش، وأن أنبهر بزرقة البحر الأبيض المتوسّط في أنطاليا، وبصفرة السهول المتربة في نيدة، وخلال مسيرة التحسين الحاليّة آمل على وجه الخصوص ألّا يخسر الشعب التركيّ رقّته الأصيلة وروحه النقيّة؛ فلا شكّ أن عمليّات سطو وسرقات وأعمال إجراميّة قد تحدث، وكلّها عناصر

ناجمة عن تأثير الغرب على القيم التقليديّة؛ أذكر حينما زرت إسبارطة عام ١٩٩١م وأغلقت مزلاج سيّارتي، ضحك المسؤول عن موقف السيّارات وسخر منّي قائلًا: ''يا لك من امرأة حمقاء! لا تحتاجين لذلك هنا؛ فنحن في تركيا حيث لا يسرق أحد غيره!''؛ كم أتمنّى أن يظلّ دومًا على حقّ!

كلّ ما ذكرت ليس سوى عقبات صغيرة في طريق التقدّم الفائق السرعة؛ أنا أيضًا أشارك الأتراك حماسهم عند ركوب سفينة البوسفور العظيمة المنطلقة نحو المستقبل؛ فثمة مشروعان كبيران يُخطّط لإقامتهما على البوسفور، يذكّران الناس جميعًا بمدى التغيّر الطارئ على تركيا منذ أن حلَم السلطان سليمان العظيم بتشييد جسر فوق البوسفور: مشروع ''مرمراي''، المتوقّع إتمامه عام ٢٠١٢م، سيربط شطري إسطنبول الأوربّيّ والآسيويّ بنفق سِكَك حديديّة يمتدّ أسفل البوسفور مسافة ثلاثة عشر كيلومترًا، ليكون بذلك أعمق نفق تحت الماء في العالم، ومن المخطّط أيضًا أن ينتهي في ذلك الوقت نفسه تشييد جسر ثالث فوق مياه البوسفور، ورغم هذا القدر الهائل من النشوء والتقدّم، سرعان ما سيصبح من الصعب على فرنسا أو النمسا أو أيّة دولة أخرى في العالم تجاهل تركيا؛ إذ يعمل في الوقت الحاليّ جيل من عابري الجسور على قدم وساق لتصميم مخطّطات تنفيذ هذه المشاريع، ولا يسعني إلّا أن آمل أن تكون تجرِبتهم مع تركيا ثريّة كتجرِبتي منذ بدأت أعمل على ترجمة وثائق مشروع جسر الفاتح!

هل أصابك الدُّوار لقراءة هذا كلّه يا سيّدة ماري؟ رجاء لا تقلقي؛ فعلى الرغم من ظهور هذه التغيّرات كلّها التي وصفتها لكِ، ستظلّ كثير من انطباعات ومباهج أمتعتكِ خلال إقامتك في تركيا كما هي دون تغيير مهما أغذت تركيّا في طريقها نحو التقّدم؛ ستظلّ تلك الجدران المكسوّة بالبلاط المزجّج قائمة في جامع السليميّة بأدرنة لتثير إعجابك، وسيبقى مشهد رأيتِه من نافذتك أعلى مرتفعات بيرا، وستبقى متعة نُزُه الزوارق

في مياه البوسفور الزرقاء، وستبقى النسوة الفواتن المرتديات ماسًا كبارًا بحجم ثمار البندق، وستبقى ثمار بندق منطقة البحر الأسود، وسيبقى ولع الأتراك بالأطفال، وحبّ العائلة، وسجاجيد تُبسط في النُّزَه الخلويّة.

سيّدة ماري، أنا معجبة إعجابًا عميقًا بمدينة قيصري، وكم تمنيّت لو أنّك زرتها! أعتقد أنّ من أسباب إعجابي بها أنّها ترمز للملاءمة الدائمة بين الأساليب القديمة والحديثة، حينما أقف في الميدان الرئيس ناظرة حولي في الاتّجاهات جميعها، أرى مشهدًا كاملًا لتاريخ تركيا وقوّة تقدّمها؛ فجبل أرجيز البركانيّ يمثّل بدء الزمن، والسوق الصاخبة تعيد أصداء لخطوات التجّار الآشوريّين والحيثيّين، وجدران المدينة الحجريّة تشهد على عهد الرومان والبيزنطيّين، ومدرستا ماهبري خاتون والصاحبيّة تبرزان أهميّة هذه العاصمة السلجوقيّة، ومسجد علي باشا -بناه سِنان- يلخّص عظمة الإمبراطوريّة العثمانيّة، وقيم المد الجمهوريّ تتماشى مع تمثال أتاتورك الممتطي صهوة جواده وسط الميدان؛ وتلمّع تركيا الأحلام الأوربّيّة في الواجهة الزجاجيّة لفندق هيلتون، المصمّم ليعكس منظر جبل أرجيز المهيب في الجهة الأخرى؛ أتمنّى أن يستطيع كلّ مواطن تركيّ أن ينظر حوله في مدينته، وأن يشعر بالفخر نفسه بمسيرة التاريخ والتقدّم الرائعة!

أنا على ثقة تامّة أنّ سجّادة تركيا العملاقة المنسوجة الآن بطول ألف ميل وعرض ثلاث مئة ميل ستصبح سجّادة خلّابة تنال إعجاب العالم أجمع، وآمل أن يدرك الأتراك أنّ الموكيّت الأزرق الساذِج المفروش في مسجد علاء الدين بقونيا حاليًّا لن يعْلَق بالذاكرة كالسجاجيد المنسوجة إبّان عهد السلطان علاء الدين كيقوباد المزيّنة أرضيّات هذا المسجد في الأصل؛ إذ دخلَت سجاجيد هذا السلطان العظيمة كتب تاريخ الفنّ بوصفها من أروع أمثلة فنّ النسيج، وتُعدّ الآن دُرَرًا نادرة تتوّج متحف الفنّ الإسلاميّ بإسطنبول، وتجذب ملايين الزوّار سنويًّا؛ وهكذا أتمنّى

لتركيا أن تظلّ هي وشعبها ينسجون سجّادة البلاد المتلألئة ذات التفرّد والتميّز العظيمين، وروعة التصميم، وبراعة التنفيذ.

لم أنسَ قطّ شجرتي في ذلك النُّزُل المتهالك في أنطاليا؛ إذ سكنت ذاكرتي وأحلامي منذ خشيتُ تدميرها خلف ذلك السياج من الأسلاك الشائكة؛ فعدت هذا العام إلى أنطاليا عازمةً على أن أعثر عليها؛ إذ كنت مقتنعة أنّها ما زالت على قيد الحياة؛ لأنّني لا أصدق أنّ شيئًا نفيسًا ونبيلًا مثلها يمكن اقتلاعه لتنفيذ مشروع إنشاء؛ سرت في طريق لارا إلى أن وصلت مكانًا ظننت أنها كانت فيه، ودخلت منطقة مقامًا عليها فندق حديث الآن، وحينما كنت على وشْك فقدان الأمل في العثور عليها، رأيتها فجأة تقف في متاهة الممرّات أمامي؛ لم تنجُ الشجرة فقط، بل أصبحت محور تصميم المنظر المطلّ عليه الفندق كلّه؛ فبُنيت حولها شرفة واسعة كي تشرف على عظمتها، ووقفت الشجرة -كعادتها- ترحّب بالجَلَسة تحت ظلالها الوارفة لينعموا بسكينتها وإطلالتها الرائعة على خليج أنطاليا؛ أعتقد أنّ تركيا سوف تلقى مصير شجرتي نفسه؛ ستبقى دائمًا، لكنّها ستتغيّر، وستنشأ نشوءًا محمودًا بمرور الزمن، وستتكيّف كي تظلّ دومًا واقفة بفخر وشَمم، وجذورها ضاربة في عمق الأرض للأجيال القادمة، وأغصانها ممتدّة نحو القمر والنجوم!

صديقتكم
قدرية برانج

فندق شينار المؤسّس عام ١٩٥٨م، من أوّل الفنادق في إسطنبول ذات النجوم الخمسة

شارع سغوق جشمة ''السبيل البارد''، إسطنبول، عام ١٩٧٨م

شارع سغوق جشمة "السبيل البارد"، إسطنبول عام ٢٠٠٨م

حافلة قديمة في توقات

تخلّصوا من هذه الأصفار!

عملية إنشاء جارية

الموكيت المبسوط في مسجد علاء الدين بقونيا عام ١٩٩٦م

سجّادة صوف من مسجد علاء الدين بقونيا عام ١٢٢٠م، متحف الفنون التركيّة والإسلاميّة، إسطنبول، قطعة رقم ٦٨١

مدرسة جوهر في قيصري عام ١٩٨٥م

مدرسة جوهر في قيصري عام ٢٠٠٤م

عيون تنظر إليك في الشارع وفراء يتمسّح بقدميك

مجمع ''صاحب عطا'' في قونيا

امتزاج القديم بالحديث في بيشهير

أسوار المدينة البيزنطيّة المرمّمة في إسطنبول

عتبة أبلاها الزائرون في مدخل منطقة ضريح السلطان سليمان العظيم في إسطنبول

أعمال ترميم بمجمع إسماعيل بك في قاسطمونى

فوّارة عثمانيّة عامّة في إسطنبول توزّع الآن الكوكاكولا وزجاجات المياه المعلّبة

كاتب عرائض عامّ

فندق هيلتون في قيصري المشيّد عام ٢٠٠٢م يقف في ظلّ جبل أرجيز

فندق هيلتون في قونيا المشيّد عام ٢٠٠٢م، نُزُل حديث في سهول الأناضول

شجرة الدُّلْب في نُزُل بأنطاليا، طريق لارا بيتش عام ١٩٨١م

الرسالة السابعة والعشرون

طاقة أزهار التوليب

عزيزتي السّيدة ماري،

ليتك تستطيعين رؤية مدى ما أحرزه هذا البلد من تقدّم منذ أن كنتِ هنا! فلو أنّك هنا الآن، فلن تعرفي تركيا؛ إنّها مختلفة تمامًا عن تلك التي حكمها سلطانٌ أَثِرٌ أَشِر عرفتِه؛ هذا البلد مسالم، ولم يعد عازمًا على تحقيق فتوحات خارجيّة، بل بات يركّز على خوض حرب داخليّة لضمان مكانة سياسيّة، وماليّة، واجتماعّية، وأخلاقيّة لمواطنيه؛ لا شكّ أنّ تركيا تنمو؛ فشبابها -وفقًا لإحصائياتها ٧٠ ٪ من السكّان تحت سنّ الخامسة والثلاثين- يضطلعون الآن بالمسؤولية، وهم شباب متحمّسون، ينظرون عن يمينه وعن شِماله قبل عبور الطريق، ويرغبون في أن يكونوا سعداء متعلّمين، يحلَمون بمشاركة الرؤية الأوربّيّة لتحقيق التقدّم الاجتماعيّ، والعدالة، وحريّة التعبير، والتقدّم التقنيّ، والرخاء الماليّ؛ لا شكّ أنّهم سيصبحون سادة هذه البلاد في غضون سنوات قليلة، وورثة تراث غنيّ جدًّا، تركه لهم السلاجقة، والعثمانيّون، ولن يخشوا التحرُّر من الماضي، وتقديم التضحيات والمخاطرة، وسيخرج من جموعهم الغفيرة آخران على شاكلة علاء الدين كيقوباد وسليمان العظيم ليحدّدا شكل مستقبل تركيا؛ بلد يمكن أن يفاجئ الناس جميعًا ويصبح من أنجح الدول في القرن الحادي والعشرين!

في رسالة لأليكساندر بوب بتاريخ الحادي والعشرين من فبراير/شباط عام ١٧١٧م، تَصِفين المرور في ساحة قتال كارلوفيتز؛ ساحة كانت فيها الغلَبة للضابط النمساويّ يوجين أمير سافوي على العثمانيّين في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ١٦٩٧م؛ دفعكِ منظر الميدان المتناثرة فيه الجماجم والأشلاء للتصريح ببعض التعليقات السياسيّة النادرة، لكنّك سرعان ما توقّفت قائلة: ''لن أشغلك بهم، لنعدْ لأحداث رِحلاتي''؛ في الواقع يصعب دائمًا على أيّ أجنبيّ أن يعلّق على الأحداث دون أن يبدو نزّاعًا لانتقاد مسائل يفتقر إلى المعرفة العميقة بها، وهذا من أصعب الدروس المستفادة من التطواف في العالَم؛ أن يتعلّم المرء متى يكفّ لسانه.

وفي رسائل كتبتها إليكِ أمسكتُ قلمي عن تناول الجوانب المظلمة في الثقافة التركيّة؛ لعلّك تظنّين أنّني رسمت صورة بالغة المثاليّة لهذا البلد، وتغاضيت عن مواطن الضعف، كما ذكرتِ في رسالة بتاريخ ثلاثين من أغسطس/آب ١٧١٦م من مدينة راتيسبون: ''أعتقد أنّ من الحكمة البالغة أن يظلّ المرء محايدًا''، وقد اخترت السير على النهج نفسه؛ لأنّني مثلك رحّالة، لست صحفية ولا عالمة سياسيّة متمرّسة؛ لذا أترك لهؤلاء تحليل مسائل الفروق المجتمعيّة والمشكلات المتعلّقة بالسياسة والدين والثقافة والعِرق، وأنتِ أيضًا عشتِ عصرًا كانت المشكلات فيه تُلقي بظلالها على المجتمع، لكن كلّ شيء بدا على حقيقته، ومن ذلك عصر التوليب البهيج في زمن السلطان أحمد الثالث، المكرّس للحفلات والشعر وزهور التوليب، غير أنّ ضرائب فرضها السلطان أحمد لتمويل أسلوب حياته المترف تسبّبت في اندلاع ثورة شعبيّة أدّت إلى خلعه عن العرش عام ١٧٣٠م، بعد مغادرتك تركيا باثني عشر عامًا، لكن مَن ذا الذي يتذكّر الآن -وقد مرّ أكثر من مئتين وثمانين عامًا- تلك المشكلات الاجتماعيّة في عصره؟ فلم يبقَ في ذاكرة العالم سوى زهور التوليب بألوانها الزاهية وسوقها المتمايلة، وبعد أن حصلت عليها

هولندا، بات العالم بأسره ينظر إليها بوصفها رمزًا لتجدّد فصل الربيع وللأمل البهيج، لكنّني سأظلّ أنظر إلى تركيا بلدًا يحمل طاقة كبيرة من التوليب للعالم!

حينما أحدِّث من حولي عن تركيا، غالبًا ما أجد مشقّة في تجاوز رؤى سلبيّة تسبّبت فيها جوانب مظلمة قرؤوا عنها في الصُّحُف، يبدو أنّها تؤثّر على رؤيتهم الفعليَّة لهذا البلد، لكنّ الجوانب المظلمة في كلّ ثقافة وشعب وبلد، وقد تكون أشدّ ظلمة أو أكثر إشراقًا وفقًا لرؤيتك أنت؛ يمكنني أن أرى بوضوح الجوانب المظلمة في تركيا؛ لأنّ كثيرًا منها في بلادي، وقد ساعدني السفر إلى تركيا ورؤية صراعاتها مع هذه المشكلات ذاتها على رؤية بلادي ومؤسّساتها من منظور مختلف؛ فالتعامل مع الجوانب المظلمة لا يعني الشعور بالخزي منها، بل يعني مواجهتها وبحثها، ومناقشة وجهات النظر المختلفة، وتحليل المشكلات، ثمّ التحرّك واتخاذ إجراءات لمنع تَكرارها.

بلغت تركيا الآن درجة من النضج تستتبع تحمل المسؤوليّة، وباتت البلاد مستعدّة لإجراء تغييرات استثنائيّة؛ كبِر البلد النامي وصار قادرًا على اتخاذ قراراته بنفسه؛ فتركيا الراشدة تكافح لتقرّر شكل ديمقراطيّة مستقبلها وكيفيّة دعمها، وأنا على يقين تامّ أنّ الشعب التركيّ بما تعلّمه وبذكائه وقوّته وعزمه وقيمه المجتمعيّة، سيتمكّن دومًا من اختيار طريق يحقّق أفضل أحلامه للمستقبل؛ ستقف تركيا على الساحة العالميّة بفخر على مرأى ومسمع من مواطني العالم أجمع.

قبل أن أختتم مجموعة رسائلي إليكِ، أودّ أن أعبّر لك -يا سيّدة ماري- عن إلهام شديد استوحيته منك عند كتابتها؛ وكيف ساعدتني دروسها أن أجيد عبور الجسور، ومن أكثر ما أعجبني في رسائلكِ -بجانب مرحها وتفاؤلها وأسلوبها الساحر السهل المعبّر عن فِكَرك- هو أنّك

كنت صادقة ومتفتّحة بشأن ما شاهدتِه كلّه في تركيا؛ ولأنّك كاتبة موهوبة تمكّنت من وصف محيطك وصفًا مفعمًا بالحيويّة، بأسلوب يجعلنا نشعر أنّنا إلى جوارك، لكنّني أعتقد أنّ الهديّة الحقيقية في رسائلكِ هي أنّك لم تترفّعي عمّا دار حولك، فليس فيها نبرة استهزاء أو تعالٍ؛ كيف استطعت أن تظلّي بعيدة كلّ البعد عن تعصّب وتحيّز كانا سمة كثير من معاصريك الإنجليز؟ يسعدني أيضًا أنّك صغت فِكَرك بأسلوب متّزن، يحترم مشاعر قرّاء رسائلك أيًّا كانوا، وأيًّا كانت مواقفهم وقيمهم، وأقدّر كذلك انتقاءك قصصك بعناية بالغة، حين أردت توضيح نقطة معيّنة لأصدقائك المثقّفين في إنجلترا أو دحض فِكَرهم السلبيّة أو المتحيّزة عن الأتراك؛ رسائلكِ ليست مجرّد ثرثرة جوفاء تسرد أنشطتك اليوميّة، بل هي رؤى مهمّة نابضة بالحياة للعالم من حولك، كما كتبتِ للسيّدة ريتش: "دخلتُ الآن عالمًا جديدًا؛ إذ يبدو كلّ شيء أراه مختلفًا عمّا اعتدته"، لكنّك بدلًا من التركيز فقط على الاختلافات، أدركت النقاط المشتركة بين الثقافات، وحينما لاحظت اختلافات، قرّرت ألّا تتناوليها بأسلوب متحيّز، وتحسّنت نظرتك إلى نفسك، ورأيت حضارتك بوضوح أكبر، وأخذت بأيدينا كي نحذو حذوك؛ وكتبت: "الحال عندهم كما هو عندنا"؛ لهذه الأسباب كلّها، أعلن أنّني لست وحدي أقول: إنّ رسائلك تُقرأ اليوم بالحماسة نفسها المقروءة بها عندما كتبتها أوّل مرّة؛ لذا كان من دواعي سروري أن أكتب لك هذه الرسائل -يا سيّدة ماري-، ويسعدني أن تتاح لي الفرصة كي أعبّر لا عن تقديري لتركيا وشعبها الذي نشترك في حبّه واحترامه فحسب، بل عن تقديري لكِ أنت أيضًا!

رغم أنني سأحرص على اتّباع نصيحتك بأنّ أظلّ محايدة؛ فسأختتم رسائلي ببعض معتقداتي، مع ثقتي بأنّك -يا سيّدة ماري- امرأة مستنيرة جدًّا وستشاركينني الرأي في معظمها؛ أنا أومن بالعلم وبقدرته على دفع عجلة التقدّم وتحقيق الرخاء في العالم، وأومن بالقانون وسلطته لضمان

المساواة، وأومن بالتعليم وقدرته على مساعدة الناس علي رؤية الأمور بحجمها الكبير لا كما يتصوّرونها وتجنّب شِراك الجهل والحمق والتحيّز، وأومن أنّ التعليم قادر على تبديد ظلمة البشر وخلق دافع للتعاطف والتفاهم والتغيير، وأومن أنّ الحكمة يمكن أن تُؤتى بكثير من المصادر والأساليب، وأومن بالمجتمع وبقدرة البشر على التعاون في المجتمع وفي الحكم لإقامة عالم عادل لمواطنيه، وأومن بوجود يد خفيّة تدفع الناس دائمًا في اتجاه يحتاجونه لاتخاذ القرارات السليمة، وأومن أنّ هذه اليد ذات السلطة قد تنبثق من رسائل سماويّة أو من سوق المال، وقد تأتي من الطب، أو من قاعة المحكمة، لكنّها تأتي دائمًا للشعب الديمقراطيّ، وأومن أنّ كلّ لقاء بين شخصين، وكلّ محادثة قصيرة، وكلّ كوب يحتسيانه من الشاي يمثّل صدعًا في جدار التعصّب، ومع احتساء كوب تلو آخر، ربّما يصبح عالم أحلامي حقيقة يومًا ما!

هل لمثل هذا العالم وجود؟ ربّما ليس الآن، لكنّ الاستبداد لن ينتصر أبدًا؛ ستظلّ حقوق الإنسان فوق كلّ شيء، وسينتصر دائمًا حبّ الحريّة، أتمنّى لتركيا -مواطنيها وسياسيّيها ومشرّعيها وجيشها وعلمائها- أن تعبر عدّة جسور أخرى لتحقيق هذه الأهداف، وأن تزرع بستانًا جميلًا جمال بستان رائع يرسمه الأتراك على أواني مدينة إزنيك الخزفيّة المزخرفة بزهور التوليب، وأهمّ من كلّ شيء آخر: أنا أومن بشعب تركيا!

صديقتكم

كاثرين براننج

الرسالة الثامنة والعشرون

ما شاء اللّه!

عزيزتي السّيدة ماري،

لا شكّ أنّك نجوتِ من بعض المخاطر الجسيمة خلال رِحلاتك، سواءٌ في طريقك إلى تركيا أو في رحلة عودتك إلى لندن؛ في رسالتك المؤرّخة بالحادي والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني ١٧١٦م تسردين قصّة مثيرة عن عبورك جبال الألب خلال رحلة ذهابك إلى تركيا:

«...على ضوء القمر عبرنا المنحدرات المرعبة الفاصلة بوهيميا عن ساكسونيا الجاري أسفلها نهر ألبي، لكنّني لم أخشَ الغرق؛ لأنّني كنت مقتنعة تمامًا أنّني لو تعثّرت، فمن المستحيل أن أصل إلى الأسفل حيّة، كان الطريق يضيق في عدّة أماكن حتى إنّني لم أستطع رؤية بوصة واحدة بين العَجَل والمنحدر، ورغم هذا كنت نِعم الزوجة؛ فلم أوقظ السيّد ورتلي، الغارق في سُبات عميق جواري، ليشاركني مخاوفي... قيل لي بعدها: ''إنّ من الشائع العثور على جُثَث المسافرين في نهر ألبي''.

لكن حمدًا لله أنّنا نجونا من هذا المصير، بالرغم من القصص المرعبة لمخاطر السفر المحتملة كلّها المنتظرة في الطريق، فقد سافرتِ لاحقًا بكلّ جسارة من فيينا:

"لم أصدق كلام الناس هنا؛ حذّروني من أنواع الأهوال كلّها؛ وبالفعل فقِلّة من الناس جرؤت على السفر في مثل هذا الجوّ، وفي الوقت نفسه يتهدّدني خطر أن أتجمّد حتى الموت، وأدفن في الثلوج، وأن يختطفني التتار المهاجمون هذا الجزء الذي سأعبره من المجر..."

وكأنّ صِعابًا مررتِ بها في رحلتك إلى تركيا لم تكن كافية، فقد شهد الجزء قبل الأخير من رحلتك إلى وطنك عبورًا شاقًّا، وهذه المرّة كان عبورُ مسطّحٍ مائيّ بدلًا من جبال مغطّاة بالثلوج:

"وصلت هذا الصباح إلى دوفر عقب أن تقاذفتني سفينة البريد طَوال الليل بحركات عنيفة حتى إنّ الرُّبّان أعطانا إنذارًا بالخطر؛ اتّصلنا بمركب صيد صغير تمكّن بصعوبة من الوصول إلينا، بينما ظلّ ركاب سفينتنا جميعًا يتضرّعون إلى الله؛ لا أتخيّل نفسي في موقف أشدّ رعبًا من هذا الموقف..."

تعرّضتُ أنا أيضًا إلى بعض الأحداث الخطيرة وأنا أسافر في طرقات تركيا؛ فقد شاهدت بعض شواحن النقل الضخمة وهي تنقلب على جوانبها على حَيَف طُرُق ليليّة سريعة محفوفة بالمخاطر، وخاطرت -مثلك- بالوقوع في بعض الكمائن عندما سافرت إلى مناطق نائية شرق تركيا أثناء الأزمة الكرديّة، وقد نجوت من بعض أفظع الحوادث لتحطّم السيّارات، وتعرّضت لبعضها الآخر، وشاهدت حوادث تصادم تقذف الأشخاص في الهواء كالدُّمَى المهلهلة، وشاهدت من الأسفل ذات مرّة حادثًا وقع في جنوب تركيا لسيارة تحمل أسرة من أربعة أفراد سقطت عموديًّا من أعلى طريق الشاطئ الصخريّ لترقد كالجثّة الهامدة أمامي؛ تذكّرني هذه المواقف

كلّها بأعياد شكر قلتِ عنها -يا سيّدة ماري-: "وصلت سالمة... خائرة القوى من الرعب والإنهاك؛ فلا أستطيع حمل نفسي على الكتابة..."

أريد أن أقصّ عليك قصّة مختلفة عن تجربة سفر صعبة مررت بها، وهي رحلة عودة إلى وطني مليئة بالأحداث، لكنّني بخلافك لم أجد نفسي وحيدة خائفة في عَربة سفر إلى جوار زوج نائم قليل الحيلة، بل كان أفراد الشعب التركيّ جميعًا إلى جواري في هذه المحنة؛ توجِز هذه القصة من عدّة جوانب طبيعةَ الشعب التركيّ والجمهوريّة التركيّة؛ بدأت هذه الرحلة في صباح يوم دافئ منعش في أواخر فصل الصيف في إسطنبول؛ كان اليوم الأخير في رحلة رائعة إلى شرق تركيا، حيث شاهدت بعض أجمل مناظر طبيعيّة عرفها الإنسان؛ بدءًا من الثلج الأبيض الكاسي قمّة جبل أرارات -يُعتقد أنّه جبل النبيّ نوح-، والمياه شديدة الزرقة لبحيرة وان وبهاء اللون الزمرديّ القاتم لجبال كاتشكار؛ شعرت في ذلك اليوم بسعادة غامرة لأنّني كنت محظوظة، إذ أشاهد هذه المناظر الطبيعيّة الخلابة؛ أثمن نِعَم الله إلى الإنسان، وكنت أتطلّع بشوق إلى العودة إلى زوجي الحنون ودفء علاقات زملائي في المكتبة، وكانت سماء ذلك اليوم صافية بلون الياقوت والشمسُ ساطعةٌ؛ إنّه صباح الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م.

بدأت رحلة عودتي إلى وطني كغيرها من الرحلات السابقة؛ خرجت في طريقي المعتاد إلى المطار، يملؤني حزن شديد لفراق تركيا بعد فترة حيويّة مثيرة من التعلّم والاستمتاع ومعايشة التاريخ، تختلط بمشاعر الترقّب والسعادة للقاء الأحباب في وطني؛ اشتريت الحلويات والحلوى الطحينيّة والمَلْبَن والقهوة التركيّة من متجر السوق الحرّة، ودسست في حقيبة يدي آخِر نسخة من صحيفة "حريت" التركيّة، واشتريت بالعملات المعدنيّة التركيّة المتبقّية معي عِقدًا من حبّات الخرز الزرقاء، وأثناء مروري عبر نقاط التفتيش الأولى والثانية والثالثة، علّقت في نفسي

على دقّة الأتراك فيما يتعلّق بالأمن خاصّة في هذا العالم المتقلّب؛ شعرت بالأمان!

حدث تأخير ساعتين تقريبًا، سُوّغ بالكلمات الغامضة الشهيرة: ''عُطل فنيّ''، أثناء تلك الفترة قُدّمت لنا شطائر الجبن الأبيض والطماطم اللذيذة، وأخيرًا أقلعت الطائرة، لكن بعد مرور ساعة واحدة أعلن الرُّبّان عبر مكبّر الصوت أنّنا مضطرّون للعودة إلى إسطنبول، لظهور المشكلة المزعجة مرّة أخرى على ما يبدو؛ أعادت المضيفات عربات تقديم الطعام، ورُبطت أحزمة المقاعد، وعدنا إلى إسطنبول، ونزلنا من الطائرة وانتظرنا ساعتين إضافيّتين في نفس منطقة الإقلاع نفسها؛ بدأ الحال يصبح مرهقًا؛ لهذا سعدنا، حينما أعلنت موظّفة الخطوط الجويّة التركيّة العثور على طائرة جديدة من المتوقّع أن نغادر فيها خلال وقت قصير، ومرّة أخرى أقلعت الطائرة وكلّنا يقين أنّ المشكلات جميعها حُلّت هذه المرّة.

المفاجأة أن الرُّبّان تحدّث بعد مرور ساعة، وأعلن باللغة التركيّة أنّنا مضطرّون للعودة إلى إسطنبول المرّة الثانية؛ امتعض الركّاب جميعهم وتأفّفوا، وبدأت أيأس من عودتي إلى وطني ذلك اليوم، غير أنّ الربّان تحدّث تلك المرّة بصوت تشوبه نبرة غريبة، وقال كلمات مبهمة فحواها: ''أنّنا مضطرّون للعودة؛ لأنّه تمّ إغلاق المجال الجويّ الأمريكيّ بأكمله''؛ فأصابني الذعر فورًا لإدراكي أنّ شيئًا رهيبًا قد حدث لأنّ المجال الجويّ الأمريكيّ لم يُغلق قطّ على مدار تاريخنا كلّه؛ شرعت أبكي خوفًا من المجهول؛ إذ إنّني لم أتمكّن من معرفة ما حدث لكنّني كنت متأكّدة أنّه أمرٌ جلل؛ اقترب منّي صبيّ تركيّ، وسألني عن سبب بكائي، وعجزت عن إخباره بمصيبة أتوقّعها؛ لم أشأ أن أخيفه هو والأتراك الآخرين على متن الطائرة؛ فأجبته أنّني أبكي لحزني الشديد على فراق أصدقائي في إسطنبول.

بعد مرور نصف ساعة، تحدّث الرُّبّان مرّة أخرى باللغة التركيّة، وأبلغنا أنّ المشكلة على ما يبدو كانت "تعرّض أحد مباني نيويورك الكبيرة لهجوم ما"؛ فشعرت في قرارة نفسي أنّني أعرف المبنى الكبير المقصود؛ فلا يمكن أن يكون أيّ شيء سوى ذلك المبنى الذي أراه ليل نهار من نافذة شِقّتي يقف شامخًا، كحارس جسور ليراه العالم أجمع: إنّه برج التجارة العالميّ، وشعرت بطريقة ما أنّ ما حدث لم يكن مجرّد حادث، بل لا بدّ أنّها كانت هجمة إرهابيّة، أخيرًا هبطت الطائرة في إسطنبول، وتحدّثت المضيفة في مكبّر الصوت تطلب من الركّاب جميعًا البقاء في مقاعدهم، ثمّ تحدّث الرُّبّان باللغة التركيّة، أعقبها بعبارات إنجليزية كي يتمكّن الأمريكان القليل على متن الطائرة من فهم ما يحدث؛ تحدّث بوضوح وبطء، لا لضعف لغته الإنجليزيّة، بل ليتيح لنفسه فرصة انتقاء الكلمات المناسبة لنقل رسالته بأكبر قدر ممكن من الرقّة والحذر؛ فقال بصوت مرتعد مفعم بالمشاعر: "السيّدات والسادة، يؤسفني أنّ أحمل لكم بعض الأنباء المحزنة؛ وقعت هجمة إرهابيّة على المبنى الشاهق في نيويورك، مبنى مركز التجارة العالميّ؛ الحال سيّء جدًّا، وقد أصيب كثير؛ وللأمريكيّين جميعًا على متن الطائرة، أتقدّم اليوم بخالص عزائي لكم ولبلدكم"، ثمّ سمعناه يبكي؛ جعلني صوت بكائه أدرك محنته؛ فهو مجبر على إبلاغنا بهذه الأخبار، ذلك المضيف التركيّ الكريم اضطرّ لإبلاغ ضيوفه الجالسين في طائرته بما يزعجهم ويعكّر صفوهم؛ لا بدّ أن الرُّبّان شعر بالحزن الشديد لاستخدام أحدهم الطائرة، مصدر رزقه أداة للتدمير؛ لعلّه استاء أيضًا لأنّه تدرّب في الأغلب على يد ربابين أمريكيّين، ولأنّه يمرّ كثيرًا بأمريكا خلال رحلاته، ويدور حول هذين البرجين المميّزين بجزيرة مانهاتن، لا شكّ أنّه أصيب بالحسرة والمرارة لأنّه قيل: إنّ الإرهابيّين يُظّن أنهم مسلمون مثله؛ ضاعف بكاؤه صوتَ انفجار الاصطدام في أذنيّ، ورأيت الحادث في مخيّلتي بوضوح، رغم أنّني

لم أعلم حينئذ أنّ البرجين سيسقطان، وأنّ الفاعِلين يُزعم أنّهم مسلمون.

بفضل ذلك "العُطل الفنيّ" نجونا من مصير كثيرين عادوا إلى أمريكا بالطائرة في ذلك اليوم، وبدلًا من أن نتوه، كان الأمريكيون القليلون على متن تلك الطائرة التابعة للخطوط الجويّة التركيّة محظوظين؛ ففي خِضَمّ الفوضى اللاحقة عادوا إلى بلد مستعدّ لاحتضانهم والاعتناء بهم.

عندما نزلنا من الطائرة ودخلنا قاعة المطار، وجدنا أمامنا أشخاصًا من الأشكال والألوان كلّها مصطفّين في صمت تامّ؛ كان العاملون في المطار جميعًا قد اجتمعوا لاستقبالنا؛ فمنهم الموظّفون بزيّهم الرسميّ ذي الأُرْبة المرسلة أو بزيّ الخطوط الجويّة التركيّة والأُرَب المرسلة، ومنهم الحمّالون بسُتَرهم الرماديّة، ومنهم عوامل النظافة بمراويلهنّ الزهريّة الواقفات بحذر إلى جوار عرباتهن، ومنهم رجال الشرطة بأحزمتهم الجلديّة السوداء الثخينة، ومنهم المسؤولون عن خدمة تقديم الطعام بقبّعاتهم الورقيّة البيضاء، وضبّاط الأمن بسُتَرهم السوداء، وآخرون كُثر وسط زحام الألوان والملابس؛ بدا أنّ مَن في المطار جميعًا حضر ليشكل حائطًا بشريًّا يحيطنا برعايته وعنايته؛ منذ تلك اللحظة وكلّ شيء مشوّش في ذاكرتي، كأنّما كنت على وشْك أن أفقد الوعي، أو كأنّما كنت تحت الماء أرى أشخاصًا تقترب منّي وتتحدّث، لكنّني لا أسمع كلامهم، غير أنّني أتذكّر بوضوح كلّ يد امتدّت -تلك أيادٍ تركيّة سحريّة شهيرة تظهر وقت الحاجة- لتأخذنا من مِرفقنا وتدلنا على منطقة استلام الأمتعة؛ لا أذكر ما وُجّه لي من كلام في تلك الفترة، لكنّني أذكر نظرات العيون؛ فحزنٌ رأيته في تلك العيون جعلني أدرك فداحة الموقف، ورغم هذا أتذكّر بوضوح أنّ رجلًا أنيقًا رماديّ الشعر يرتدي زيًّا أسود وبيده جهاز لاسلكيّ اقترب منّي، وقال بعبارات إنجليزيّة متقنة: "من فضلك لا تقلقي؛ فسنعتني بكم؛ سنصطحبك في سيّارة مغلقة لتنزلي في فندق قريب،

هـو مـكان جميـل وممتـع، لا تقلقي؛ يمكنـك الإقامة هناك حتى تسـتقر الأحـوال، وحينهـا يمكنـك العـودة إلى وطنـك؛ لا تقلقي، سـنعتني بك، لكـن اعلمـي أنّـك حينمـا سـتدخلين غرفتـك وتفتحيـن التلفاز، سـترين مشـاهد وحشـيّة لم تريها من قبل وستزعجك جدًّا، سيكون هناك شخص في انتظارك على طاولة في ردهة الفندق، هو طبيب نفسيّ مستعدّ للإنصات إليك إذا كان الحال غير محتمل لك؛ بالتوفيق والشـفاء''؛ أسـتطيع حتى يومنـا هذا رؤية القَسِـمات الحادّة للوجه الأدكن غيـر الحليق لهذا الرجل النحيـف المرتدي سُـترة سـوداء بالية، والمـادّ يده ليرفـع حقيبتي بسـرعة ويضعها في العربة المغلقة.

علـى مَـن يعـود الضميـر ''نحـن'' فـي كلام الرجـل، حينمـا قـال: ''إنهم سـيعتنون بنا''؟ لا شـكّ أنّـه يعني الخطوط الجويّـة التركيّة، لكنّني شـعرت أنّ كلّ شـخص في البلاد سيشارك في هذه المهمّة؛ كيف تمكّنت دولة يُشـاع أنّها فوضويّة أن تجهّز في أقلّ من سـاعتين عمليّة رعايّة كاملة، تشـمل الإقامة ووسائل المواصلات وطبيبًا نفسيًّا ينتظر على طاولة؟ كيف تصرّفـوا بهـذه المهنيّة والهدوء، وقدّموا المسـاعدة لكـي نركّز نحن على مصيبتنـا، ونواجهها؟ كنت فاقدة الحـسّ، فلم أتمكّن من اسـتيعاب ذلك كلّه، عندما وصلنا أنا والأمريكيون القلّة على متن تلك الرحلة إلى الفندق، أرشـدونا إلى غُرفنا في حالة من صمت ومراعاة تراها في الجنائز؛ دخلت غرفتـي فـي ذلك الفنـدق الجميل بالفعل، وجلسـت على حافـة الفراش، وشـاهدت تلك المشـاهد على شاشـة التلفاز؛ فعلمت أنّ الرجل ذا الشعر الرمـاديّ لم يكـن مبالغًا؛ عرفت تفاصيل قصّة تحكي تعرُّض أحد المباني الكبيـرة فـي نيويورك لهجوم مـا''، وعرفت أنّه هجوم أُلصِق باسـم الدين وباسم الله الرحمن الرحيم!

أقمت في الفندق أسبوعًا لم أتمكن خلاله من الحصول على أخبار شخصيّة عن الحادث المأساويّ، بل تابعت تقارير إخباريّة مملّة أذاعتها شبكة ''سي إن إن''، وشاهدت صورًا لا تنتهي لحادث الاصطدام تُعرض مرّة تلو أخرى، وكأنّ مرّة واحدة ليست كافية لتُحفر الصورة في أذهاننا للأبد؛ هل مازال زوجي بخير؟ هل مازالت مساعدتي بخير، اعتادت أن تمرّ كلّ صباح وهي في طريقها لعملها من نيو جيرزي أسفلَ البرجين اللذين وارتهما أطنان الحطام؟ كيف حال الأشخاص كلّهم في جيرتي بوسط المدينة المعزولة عن باقي العالم، وكيف تعاملوا مع المأساة؟

كلّما شاهدتُ تلك الصور واللقطات للثقب في البرج، شعرت بثقب يُفتَح في قلبي، وكلّما شاهدت تلك العوارض المهشّمة، شعرت بتهّشم عظام جسدي، بعد ساعات قليلة اشتعلت النيران في كلّ شيء، كأنّ الوقت توقّف وتوقّفت معه أنفاسي، لكنّني أذكر بوضوح أنّني خرجت من الفندق في الصباح التالي لأستنشق الهواء، فرأيت العلم التركيّ المرفرف أمامي منكّسًا بمنتصف السارية العملاقة؛ يرمز لونه الأحمر لدماء ضحاياه، في تلك اللحظة أدركت أنّ هذه المأساة لم تحلّ بمدينتي فقط، بل تركت آثارها على العالم أجمع.

حيَّانا الأتراك في الشوارع كلّها وأعينُهم تفيض حزنًا بكلمة عزاء أو ابتسامة شاحبة أو تربيتة على الكتف، وتحدّث كثير منهم عن مأساة حلّت بهم في يوم من شهر آب/ أغسطس الحارّ قبل عامين؛ مأساة زلزال إزميت؛ كانت أربعون ثانية -استمرّ خلالها الزلزال في جنح ظلام ليل السابع عشر من أغسطس/آب عام ١٩٩٩م- كافية لقتل ما يُقدّر بنحو أربعين ألف شخص أثناء نومهم، أما زلزال عام ٢٠٠١م المستمرّ خمس ثوانٍ، فقد أودى بحياة ثلاثة آلاف شخص في أماكن عملهم؛

لـم يغفل الأتراك أوجه الشـبه بين الحادثيـن المروّعين؛ فقد تجرّعوا قبلي مرارة خشـية أن يكون الأحباب محبوسـين أسـفل العـوارض المتحطّمة، يستنشقون التراب بدلًا من الهواء النقيّ.

جافانـي النـوم ذات ليلـة، فنهضـت لأكتـب رسـالة شـكر، لـم أعلم لمن سـأوجّهها بالضبط أو كيف سـأوصلها إليه، لكنّني شـعرت أنّ كتابة رسـالة فـي تلك اللحظة سـتخفّف من حدّة توتري؛ إذ بـدا لي أنّ التنفيس عـن مشـاعر حـزن تكتنفنـي هو السـبيل الوحيـد المتـاح أمامـي، بعد أن امتلأت مرارة بسبب الصدمة؛ على الأقلّ سأشعر في تلك اللحظة بالذات أنّني أتحكّم في شيء واحد في العالم؛ ألا وهو تدفّق كلماتي على الورق في عالمي الخاصّ.

بعـد ثمانيـة أيّام تقريبًا، اتّصل العاملون في الفندق ذات صباح ليطلبوا منّا الاسـتعداد للمغادرة خلال سـاعة؛ فقد فُتح المجال الجويّ الأمريكيّ وسـنعود إلـى وطننـا، وكان مـن المقـرّر أن تحضـر سـيّارة خاصّـة تابعة للخطـوط الجويّـة التركيّـة إلى الفنـدق لتقلّنا إلى المطـار، وقبل أن أغادر توجّهـت إلـى المكتـب الأماميّ في الفندق لأسـتعلم عـن تكاليف الأجر المستحقّ نظير إقامتي في غرفة فاخرة، وتناولي وجبات الإفطار، وإجرائي مكالمات هاتفيّة غير مجدية، وإرسالي برقيّات للوطن؛ لم أعرف التصرّف الملائـم في تلك الأحوال، لكنّني أردت تصفية كلّ شـيء؛ وقفت الشـابّة فـي المكتب الأماميّ تنظر إليّ، وأومأت برأسـها، ثمّ قالت بصوت رقيق: ''لا تدينين لنا بشيء''، كأنّها استحيت أن ترفع بصرها وتنظر إليّ لإدراكها مـدى ألمـي وأنا في كنفها؛ اسـتحييتُ أنا أيضًا أن أنظر فـي عينيها بعد أن غمرني كرم الفندق؛ لأنّني كنت سـأرى فيهما انعكاسـات تلك المأسـاة، ولم أكن سـأتمكّن من شـكرها علـى ما فعلته لضمان راحتـي؛ لم أتكلّم، بـل أعطيتهـا ظرفًـا فيه رسـالة كتبتهـا ليلـة جافاني النـوم؛ نظرت الشـابّة

إلى اسم المُرسَل إليه وبدا عليها التأثّر، ثمّ نظرت إليّ، وقالت بصوت خفيض: ''شكرًا لك!''، حينها فقط سالت دموعي، وكأنّ كلّ لمسات عزاء ولفتات حانية تلقّيتها على مدار الأسبوع السابق جعلت شدة المحنة فجأة أكثر ممّا يمكنني أن أتحمّل.

أقلّتنا الحوافل ووصلنا مطارًا يخيّم عليه الصمت، وصعدنا الطائرة المتّجهة إلى مدينة نيويورك، في محاكاة لخطوات الأسبوع السابق نفسها، ومررنا بنقاط التفتيش الثلاثة نفسها، ولاحظت الاهتمام نفسه بالتفاصيل والإجراءات والكفاءة نفسها في العمل، لم تدُر أحاديث كثيرة خلال تلك الرحلة العائدة إلى الوطن المستمرّة إحدى عشرة ساعة؛ فنحن إمّا خائفون وإما متشائمون من التحليق في السماء على متن إحدى الطائرات التي غدت مرتبطة بأسلحة الدمار الشامل، دعكَ مما سيلقاه كلّ فرد لدى وصوله.

كانت المدينة التي وصلت إليها تلك الليلة واجمة وجوم ركاب الطائرة، والمشهد الرائع السابق لمركز التجارة العالميّ من نافذة شِقّتي بحيّ ''قرية جرينيتش'' خيّمت عليه الآن كُتَل من الضباب الرماديّ المصفرّ، تشعّ نهارًا فيظهر غبارها في أشعّة الشمس المنعكسة، وتشعّ ليلًا في أضواء المصابيح الشديدة العملاقة المثبّتة في الموقع؛ اكتست مفروشات منزلي، في ذلك اليوم ولعّدة أشهر تالية، بغبار تحطّم هذين البرجين ورماد ضحاياه ثلاثة الآلاف؛ وأنا أنظف المنزل كلّ يوم لعدّة أشهر، ظللت أتلو صلوات وآيات من الكتاب المقدس للأرواح البريئة كلّها المستحيلة غبارًا أكنسه!

تعافت مدينة نيويورك، وتعافت الولايات المتّحدة، وكذلك فعلتُ؛ ما زلنا نعيش تبعات ذلك الحدث المشين حتى اليوم، البسيط

منهـا والمعقّد، المحليّ منها والعالميّ؛ أسـأل نفسـي كثيرًا إن كان تجاوز أحداث ذلك اليوم أصعب عليّ من أغلب الأمريكيّين، فرغم أنّني لم أُمْنَ بخسائر شخصيّة في الأرواح، فقد شعرت بخسارة مدينتي الهائلة وفقدت الثقـة فـي إخواني البشـر؛ شـعرت أنّ لصيقة الإرهاب بالمسـلمين كارثة، فالإسلام دين ذو مكانة خاصّة في قلبي؛ شعرت بخيانة أشخاص متعصّبين يُقال إنهم ينتمون لدين عددته طاهرًا نبيلًا لطّخوا سمعته ولوّثوه بما لا يدع مجالًا للغفران، لم أصدق أنّ إسلامًا عرفته، من خلال دراستي ومعايشتي للمسـلمين ومن خلال مسـلمين كُثر قابلتهم في تركيـا ووجدتهم يؤمنون بالله الرحمن الرحيم، لم أصدِّق أن له صلة بأولئك مرتكبي تلك الفعلة.

حينمـا أدركـت منحنـى خطيـرًا يدفعنـي إليـه حزنـي باتّجـاه الشـكّ والمـرارة والخـداع، تيقّنـت أنّ ذلـك كلّه لا بـدّ أن ينتهـي، فقطعت عهدًا على نفسـي؛ قلت لنفسـي: ''ربّما لا أسـتطيع السـيطرة على ما تؤول إليه أحداث العالم كلّها، لكنّني أستطيع السيطرة على محيطي القريب؛ محيط يمكنني التأثير فيه''؛ يُقال: ''إنّ كلّ شـيء يحدث في الحياة ليسـاعدنا أن نعيـش''؛ لهـذا علمـت أنّني يجب أن أسـتغلّ ذلك اليـوم وأوجّه جهودي لدعـم التفاهـم بيـن الشـعوب والأديـان، وأن أواصل تكريـس وقتي أكثر من ذي قبل لإرسـاء علاقات بين الثقافات؛ قلت في نفسي: لو أنّ شخصًا مثلي يكنّ كلّ الاحترام للإسلام تراوده تلك المشاعر السلبيّة ضد المسلمين، فبمـاذا يشـعر الأمريكـيّ العاديّ؟ شـعرت بضـرورة أن أبني جسـورًا أكثر من أيّ وقت مضى.

لم تنتهِ قصّتي في تركيا مـع أحداث الحادي عشـر من سـبتمبر/أيلول؛ فبعـد مرور خمسـة أشـهر على الحادث، عـدت إلى عملي من اسـتراحة الغـداء ذات يوم لأجد موظفة الاسـتقبال تنتظرني بصندوق خشـبيّ كبير،

ملصق بـه ظرف من الخطـوط الجويّة التركيّة يحمل اسـمي؛ غاصَ قلبي في صدري، وفاضت عليّ الذكريات -الحسـنة والسـيئة- لأسـبوع قضيته فـي إسـطنبول، لـم أفتـح الصنـدوق علـى المـلأ، وانتظرت حتـى أعود إلى المنزل لأنّني كنت متأكّدة أنّه شيء خاصّ، أو لمسة إضافيّة من الطيبة التركيّـة الموجّهـة إليّ؛ كانت الرسـالة مـن مدير الخطوط الجويّـة التركيّة فـي نيويـورك، تمنّـى لي السـعادة وأخبرني برغبتـه في أن يقـدّم لي هديّة رمزيّـة بالنيابـة عـن العاملين في الخطـوط الجويّة التركيّة بسـبب رسـالة إلى الخطوط الجويّة التركيّة والشـعب التركيّ، تركتها بمكتب الاسـتقبال في الفندق منذ أشـهر، وقد وصلت إليه أخيرًا؛ لم أصدق أن بعد ما قدمه الأتراك كلّه لي من مساعدات معنويّة وحسيّة، ما زالت اليد التركيّة الدافئة قادرة على احتضاني بحنانها وطيبتها؛ في الصندوق الضخم وجدت لوحة بيضيّـة كبيـرة يحيطها إطار أنيق من خشـب الجوز والزجـاج، مغلّفة برقّة، وعلى اللوح نقش بحروف رائعة للرسـالة الخالدة ''ما شـاء الله''، الحاملة معنى الثناء على خلق الله، ويستخدمها الأتراك بمعنى ''حفظك الله من كل شر!''؛ أثبتت لي تركيا -تلك الأمة العظيمة السخيّة- أنّني لا ينبغي أن أفقد الثقة في الطيبة الدائمة لإخوتي البشر.

صديقتكم

قدرية برانىج

رحلة الخطوط الجويّة التركية رقم: ٠٠٠١،
الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م

''ما شاء الله''

مشهد من نافذة شِقّة المؤلفة في نيويورك قبل الحادي عشر من سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م